رواية

رأس دا ماشينو مونتيرو المفقود

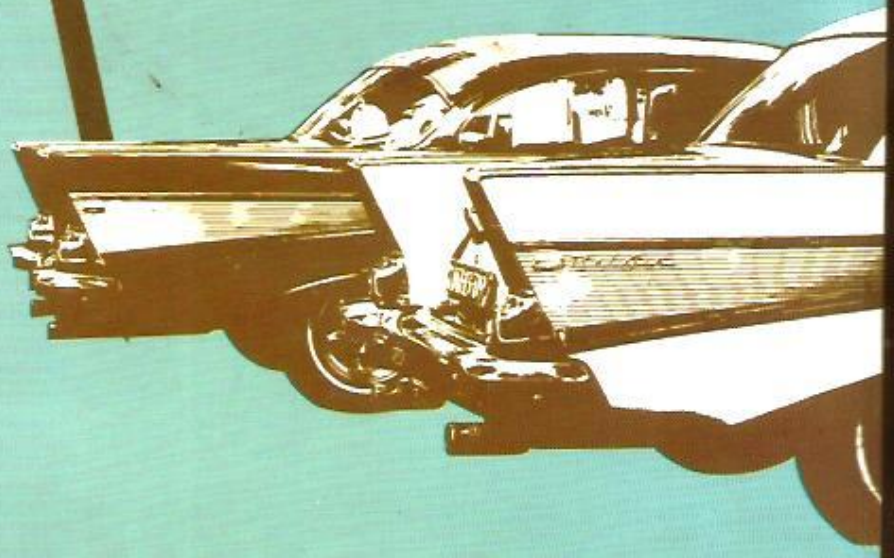

أنطونيو تابوكي

ترجمة: د. ناهد محمد عبد الله

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

انطونيو تابوكي

- ولد في مدينة بيزا الايطالية عام 1943 ويعيش في مدينة فلورنس. كذلك في البرتغال
- درس الادب البرتغالي وقام بتدريسه في الجامعات الايطالية حتى بلغ عمر المعاش
- اهتم بترجمة اعمال الشاعر " بسوا" بشكل خاص
- من اعماله

- Piazza d Italia. Milano 1975
- Piccolo na viglio Milano 1978
- Notturno indiano Palermo1984
- IL filo dell orizzonte Milano 1986

fb/mashro3pdf

رأس داماشينو مونتيرو المفقود

دار شرقيات للنشر والتوزيع

fb/mashro3pdf

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية:

Antonio Tabucchi

La testa perduta di Damasceno Monteiro

Giangiacomo Feltrinelli Editore, Milano.

Sesta edizione febbraio 2004.

رأس داماشينو مونتيرو المفقود

أنطونيو تابوكي ؛ ترجمتها عن الإيطالية: د. ناهد محمد عبد الله

الطبعة الأولى ٢٠٠٨ © حقوق النشر محفوظة لدار شرقيات ٢٠٠٨

دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ ش محمد صدقى، هدى شعراوى.

الرقم البريدى ١١١١١

باب اللوق، القاهرة

ت: ٢٣٩٠٢٩١٣، فاكس: ٢٣٩٣١٥٤٨

sharq_ca yahoo.com

www. dar- sharqiyat.com/admin

الغلاف: عمرو الكفراوي

تم نشر هذا الكتاب بالتعاون مع وزارة الخارجية الإيطالية،
ومؤسسة بنك صقلية، ووزارة الأنشطة الثقافية

Questo libro e` stato pubblicato con il contributo del
Ministero degli Affari Esteri Italiano
Fondazione Banco di Sicilia
Ministero per i Beni e le Attivita` Culturali

تابوكى، أنطونيو

رأس داماشينو مونتيرو المفقود: رواية / أنطونيو تابوكى ؛ ترجمتها: عن الإيطالية د. ناهد محمد عبد الله – ط ١. – القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨.

٢٦٨ص ؛ ٢٠×١٤ سم.

رقم الإيداع ١٩٨٤٩ / ٢٠٠٨ تدمك: ISBN 977-283-298-4

روايات – العنوان

ديوى ٨١١

fb/mashro3pdf

أنطونيو تابوكي

رأس داماشينو مونتيرو المفقود

رواية

ترجمتها عن الإيطالية

د. ناهد محمد عبد الله

دار شرقيات للنشر والتوزيع

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

إلى أنتونيو كاسيزى
وإلى مانولو ألخيتانو

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

قابلني في الطريق ساكن المريخ الخيالي
وانتابه الخوف من إنسانيته المستحيلة
وتساءل كيف يمكن أن يوجد كائن بشرى
يخلق هذا الفناء الكبير بين البشر؟

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(١)

فتح مانولو ألخيتانو عينيه ونظر إلى الضوء الخافت الذي ينفذ من فتحات الكوخ ونهض وهو يحاول أن لا يصدر أي ضوضاء. لم يكن لديه حاجة ليرتدى ملابس لأنه كان ينام مرتديًا ملابسه، فإن الجاكت البرتقالي اللون الذي أهداه إليه أجوستينو داسيلفا العام الماضي، والذي يُدعَى فرانس الألماني، مروّض الأسود الدُّرْد في سيرك مارفيلهاس، ما زال ينفعه كملابس خروج وبيجاما. حاول أن يتحسس في ضوء الفجر المحزن باحثًا عن صندله الذي تحوَّل إلى خفّ يستخدمه كحذاء. وجده ولبسه. كان يعرف الكوخ جيدًا وكان يستطيع أن يتحرك في شبه الظلام محافظًا على المسافات الدقيقة بين الموبيليا البائسة التي تؤثّثه. تقدم بهدوء نحو الباب وفى هذه اللحظة اصطدمت قدمه اليمنى بمصباح الكيروسين الموجود على الأرض. يا لتلك المرأة! قطعة غائط، قالها مانولو ألخيتانو من بين أسنانه. لقد كانت زوجته هي التي أرادت الليلة السابقة أن تترك مصباح الكيروسين بجوار سريرها مدّعية أن الظلام يسبب لها الكوابيس وأنها كانت تحلم بموتاها. كانت

fb/mashro3pdf

تقول إنه مع الضوء الخافت لا تجرؤ أشباح موتاها أن تأتيها وكانوا يتركونها تنام في سلام.

ماذا يفعل الملك في هذه الساعة، يا للنفس المعذبة من أجل موتانا الأندلسيين؟

كان صوت زوجته ضعيفًا وخافتًا كصوت شخص مستيقظ من النوم. كانت تتحدث إليه بلغة جرنجوكا وهى لغة بين البرتغالية والأندلسية لغجر إسبانيا. كانت تناديه "الملك".

ملك على قطعة جميلة من الغائط، كان المانولو يودّ أن يردّ بهذا ولكنه لم يقُل شيئًا. ملك على قطعة غائط، بالتأكيد، نعم، كان الملك منذ زمن عندما كان أقاربه يجوبون سهول الأندلس بكل حرية وكان غجر إسبانيا محترمين، وكانوا يصنعون القلادات النحاسية ويبيعونها في القرى، وكان شعبه يرتدى ملابس سوداء وقبّعات فاخرة من الجوخ، لم يكن السكّين سلاحًا للدفاع يوضع في الجيب ولكن فقط جوهرة شرف مصنوعة من الفضة المشغولة. كان هذا هو زمان الملك، ولكنه الآن، الآن وهم مضطرُّون أن يهيموا على وجوههم، الآن في إسبانيا يجعلون حياتهم مستحيلة، وربما أكثر من هذا في البرتغال حيث ذهبوا لاجئين، الآن ليس في مقدورهم أن يصنعوا القلادات والوشاحات، ويجب أن يدبروا أمرهم بالسرقات الصغيرة والتسوُّل، يا له من ملك أحمق! المانولو؟ كرّر، ملك على قطعة من الغائط. كانت البلدية قد

fb/mashro3pdf

منحته قطعة الأرض تلك المليئة بالقمامة على أطراف المدينة في ضواحي آخر الفيلاّت. لقد منحتها له تمامًا كعمل خيري، إنه يتذكر جيدًا وجه موظف البلدية الذي كان يوقّع على هذه المنح. بمظهر متسامح مصحوب بالشفقة. منحه لمدة اثني عشر شهرًا بثمن رمزي، لقد تذكره المانولو، لم تشغل البلدية نفسها بالبنية الأساسية، المياه والكهرباء، ولا حتى بالتحدث عنهما، ولكي يتبرز، عليه أن يذهب إلى الغابة وهو شيء اعتاده غجر إسبانيا، فهم هكذا يخصّبون الأرض، وحذار، لأن البوليس كان على علم بتحركاتهم البسيطة وعيونه يقظة تمامًا.

فكر المانولو، ملك على قطعة غائط، بتلك الأكواخ المصنوعة من الورق المغطّى بالزنك والتي تتفجر بالرطوبة في الشتاء، وفى الصيف تصبح كالأفران. لم يعد هناك وجود لكهوف طفولته القاحلة والمهدمة في غرناطة، فتلك كانت ساحة للاّجئين، بل ساحة للتعذيب، قالها المانولو لنفسه، ملك على قطعة غائط.

كررت الزوجة: ماذا يفعل الملك في هذا الوقت، يا للنفس المعذبة من أجل موتانا الأندلسيين؟

الآن هي متيقظة تمامًا وعيناها محملقتان، تبدو مثل الشبح هي الأخرى بشعرها الرمادي المتناثر على صدرها كأنها تمشطه لكي تنام وهى ترشق ماسكات الشعر في خصلاتها، وذلك الجلباب الوردي الذي تنام فيه.

fb/mashro3pdf

ردّ المانولو بإيجاز: إني ذاهب لأتبول.

قالت الزوجة: هذا أفضل لك.

أراح المانولو عضوه الذكرى في سرواله، وكان يشعر به صلبًا ومنتفخًا وأنه كان يضغط على خصيتيه مسببًا له آلامًا.

قال: إني قادر أيضًا على ممارسة الجنس، فكل صباح أستيقظ هكذا بعضوي الذكري شديد الصلابة وهائجًا وأرى أنى قادر على ممارسة الجنس.

أجابت الزوجة: إنها المثانة، فإنك عجوز أيها الملك، تعتقد أنك شاب ولكنك عجوز، عجوز أكثر منى.

كرّر المانولو: أرى أنى ما زلت قادرًا على ممارسة الجنس ولكن معك لا أستطيع لأن العنكبوت قد عشش بك.

أنهت الزوجة: إذن اذهب للتبول.

حك المانولو رأسه، فمنذ بضعة أيام أصيب بالتهاب جلدي عبارة عن حبوب صغيرة حمراء صعدت من رقبته إلى صلعته وهو ما كان يسبب له حرقة لا تُحتمل.

همس لزوجته: هل أصطحب معي مانوليتو؟

أجابت الزوجة: فلتترك هذا الطفل المسكين ينَم.

fb/mashro3pdf

برّر المانولو: إن مانوليتو يجب أن يتبول مع جده.

نظر نحو الفراش الذى ينام عليه المانوليتو وشعر بدفقة حنان تجاهه. كان عمر مانوليتو ثمانية أعوام، وهو ما تبقّى له من سلالته. لا يبدو عليه أنه من غجر إسبانيا. شعره ناعم ذو لون داكن، نعم، مثل غجري إسباني حقيقي، ولكنْ عينيه زرقاوين بلون سماوي يميل إلى الاخضرار، مثلما كانت عينا أمه التي لم يعرفها المانوليتو قط. لقد كان ابنه الوحيد "باكو" قد أنجبه من عاهرة من مدينة فارو. كان يقول إنها امرأة إنجليزية تعمل في شوارع جبل طارق وقام الباكو بحمايتها. ثم اختفت الفتاة في إنجلترا لأن البوليس قد رحّلها إلى وطنها ووجد باكو نفسه والطفل بين يديه. حمله إلى أجداده لأنه كان لديه عمل هامّ يجب أن ينهيه في ألجارفى، كان العمل في تصدير السجائر ولكنه لم يعد منه قط. وظل المانوليتو معهم.

أصر المانولو بعناد: إنه يروق له أن يرى شروق الشمس.

قالت الزوجة: فلتتركه ينَم هذا الطفل المسكين، إننا بالكاد في الفجر، أليس لديك قلب؟ فلتذهب لتفرغ مثانتك.

فتح المانولو الغجري باب الكوخ وخرج في هواء الصباح. كانت الساحة قاحلة، كل المخيَّم نائم. واستيقظ الكلب الضال الصغير، الذي أجبر كل المخيَّم أن يتبناه، من كومة

fb/mashro3pdf

الرمال وقابله وهو يهزّ ذيله، طقطق المانولو أصابعه، ونهض الكلب على رجليه الخلفيتين وهو يهزّ ذيله أكثر. عبر المانولو الساحة ووراءه الكلب الضالّ الصغير وسار على الممر الذي يمتد بطول الغابة الصغيرة بالمدينة بجوار التل الذي ينحدر نحو الدورو، كانت بضعة هكتارات سُمِّيَت بكل فخر حديقة المدينة وعرفت بأنها الرئة الخضراء للمنطقة. في الواقع كانت منطقة مهجورة خالية من النظام والأمان. وكل صباح كان المانولو يجد على الأرض الواقي الطبي وسرنجات الحقن التي لم تشغل البلدية نفسها بمهمة جمعها. بدأ ينزل الطريق الضيق المحفوف بأشجار نبات الوزال الضخمة. كان شهر أغسطس وأشجار الوزال تلك، من يدرى لماذا كانت مستمرة في الإزهار وكأنها في الربيع. استنشق المانولو الهواء بقوة. وكان قادرًا على التقاط الروائح المتنوعة للطبيعة كما علمته الحياة البرية.

وأحصى: زهرة الوزال واللاقندر والروز مارى. وتحت قدميه هناك في نهاية المنحدر يلمع نهر الدورو في الشمس المائلة التي تولد الآن بين التلال. ومركبا تجارة أو ثلاثة يأتون من الداخل ويتوجهون نحو أوبرتو بأشرعة منتفخة ولكنها كانت تبدو ثابتة على شريط النهر. كانت تنقل براميل الخمر إلى مخازن النبيذ في المدينة، وكان المانولو يعلم هذا، خمر سيتحول بعد هذا إلى زجاجات ماركة بورتو وسينتشر في العالم. لقد شعر المانولو بحنين كبير نحو العالم الرحب الذي لم

fb/mashro3pdf

يعرفه قط. موانئ مجهولة، وبعيدة ومليئة بالسحب حيث تهبط السحب كما ر أي من قبل في أحد الأفلام. كان يعرف فقط ذلك الضوء الأيبيري الأبيض الباهر للعين، ضوء مدينة أندلسية وضوء البرتغال، المنازل المطلية بالجير الأبيض والكلاب المتوحشة وغابات شجر الفلين ورجال البوليس الذين يطاردونه من مكان إلى آخر.

ليتبول كان قد اختار شجرة بلوط ضخمة تلقى بظلها على فسحة بها نباتات وتوجد على مقربة من الغابة. من يدرى لماذا كان يريحه التبول على جذع شجرة البلوط هذه؟ ربما لأنها شجرة أكبر منه في العمر، وكان المانولو يعجبه أنه توجد كائنات حية في العالم أقدم منه حتى ولو كان الأمر يتعلق بشجرة. الأمر هو أنه يشعر بأنه على.راحته وكأن الطمأنينة تسرى به وهو يتبول. كان يشعر بالانسجام مع نفسه ومع الكون. اقترب من الجذع الضخم وتبول بكل راحة. وفى تلك اللحظة ر أي حذاء. الشيء الذي جذب انتباهه أنه لا يبدو حذاءً قديمًا ومُلْقًى، كما يوجد أحيانًا في تلك الأرض، كان حذاءً لامعًا وبرّاقًا من جلد بدا له أنه جلد عنزة موجَّهًا إلى أعلى كما لو كانت ترتديه قدم ويطل من خلف شجرة كثيفة. اقترب المانولو بحذر. لقد علمته خبرته أنه ربما كان شخصًا مخمورًا أو منحرفًا في كمين. نظر إلى أعلى الأشجار ولكنه لم يستطع أن يرى شيئًا. التقط قطعة من الخشب وبدأ يبعد الأغصان عن الأشجار الضخمة، وعن الحذاء الذي اتضح بعد أنه بوت صعد

fb/mashro3pdf

إلى ساقين في بنطلون من الجينز الأنيق. وصل نظر المانولو حتى الخصر وهنا توقف. كان الحزام من جلد فاتح اللون، به حلية ضخمة من الفضة على هيئة رأس حصان ومكتوب عليها "Texas Ranch". حاول المانولو بصعوبة أن يفسر هذه الكلمات وحفرها جيدًا في ذاكرته. ثم استمر في عملية البحث وهو يبعد الأشجار الكثيفة بقطعة الخشب. كان الجزء العلوي يرتدى فانلة خفيفة زرقاء بأكمام قصيرة وتوجد عليها عبارة مكتوبة باللغة الأجنبية "Stones of Portugal"، نظر إليها المانولو طويلاً ليحفظها جيدًا في ذاكرته. وبقطعة الخشب استمر في بحثه، بهدوء وحذر كأنه خائف أن يسبب أذى لهذا الجسد ذي البطن العاري في الهواء بين الأشجار الضخمة. ثم وصل حتى الرقبة ولم يستطع أن يصل بنظره إلى أكثر من هذا، لأن الجسد بلا رأس. لقد كان قطعًا باترًا لذا لم يسبب إلاّ نزفًا قليلاً من الدم، هناك فقط بعض من البقع الدموية لونها داكن يتجمع حولها الذباب. سحب المانولو عصاه تاركًا الأشجار الكثيفة تعود وتغطى ذلك المنظر البائس. ابتعد لبضعة أمتار وجلس مستندًا على جذع شجرة البلوط وبدأ يفكر. ولكى يفكر جيدًا أخرج الغليون وملأه بالسجائر ماركة "ديفينيتيفوس" التي فتحها بعناية شديدة. كان يروق له في الماضي أن يضع في غليونه تبغًا مفتتًا، لكنه أصبح غالى الثمن لذا فهو مضطر إلى فك السجائر ذات التبغ الداكن اللون التي يستطيع شراءها بالواحدة من متجر السيد فرانشيسكو، المعروف بكاكاسوتّو، لأنه كان يسير

fb/mashro3pdf

وأردافه مضمومة كأنه سيتغوط على نفسه، ملأ المانولو موقد الغليون ثم أخذ بعض الأنفاس وبدأ يفكر. فكر في ذلك الشيء الذي اكتشفه وفكر أنه لم يكن بحاجة إلى أن يعود لينظر ثانية، فإن ما رآه كان كافيًا وفائضًا. وفى تلك الأثناء كان الوقت يمر، وبدأت صراصير الليل في خوارها الفظيع وكانت تفوح حوله رائحة قوية لنبات اللاڤندر العَطِر والروز مارى. كان شريط النهر اللامع يمتد أمام عينيه وتهبّ نسمة خفيفة ودافئة وبدأت ظلال الأشجار تتقلص. فكر المانولو أنه لحسن الحظ لم يصطحب حفيده معه، فالأطفال يجب أن لا يشاهدوا هذه الفظاعة، ولا حتى أطفال الغجر، هكذا قال لنفسه. سأل نفسه: كم تكون الساعة؟ وسأل قرص الشمس. أدرك حينها فقط أن الظل قد تحرك من مكانه وأن الشمس تسطع عليه بشكل كامل وأنه كان غارقًا في عرقه. نهض وهو متعب ثم اتجه نحو المعسكر. كانت في ذلك الوقت في رقعة الأرض المتسعة حركة كبيرة. النساء المُسنَّات ينظفن الأطفال في أوعية الاستحمام والأمهات يُعددْنَ الطعام. كان الناس يحيُّونه ولكنه لا يجيب تقريبًا. دخل خيمته، كانت زوجته تضع ملابس المانوليتو وتكسوه برداء أندلسي قديم، لأن جماعتهم قد قرروا أن يرسلوا الأطفال لبيع الزهور في مدينة أوبرتو وأن يرتدوا الملابس التقليدية ليكون منظرهم أكثر تأثيرًا.

قال المانولو بصوت منخفض: لقد وجدت ميتًا في الغابة.

fb/mashro3pdf

لم تفهم زوجته. لقد كانت تمشّط شعر المـــانوليتو وتدهنـــه بالملمّع.

– جثة بجانب شجرة البلوط.

قالت الزوجة: اتركه يتعفن، فكل شيء متعفن حولنا.

قال المانولو: إنه بلا رأس، لقد قطعوه له بشكل بـــاتر، هكذا.

وقام برسم إشارة بيديه على رقبته، أما العجوز فنظرت إليه بعين محملقة.

سألت: ماذا تريد أن تقول؟

رفع المانولو يده إلى عنقه كأنها سكين، ثم عاد وكـــرر: هكذا.

استدارت العجوز وأبعدت المانوليتو.

قالت بحزم: يجب أن تذهب إلى البوليس.

نظر المانولو إليها بشيء من الشفقة.

قال بكل فخر: إن الملك لا يذهب إلى البوليس، مـــانولو غجر إسبانيا والبرتغال الأحرار لا يذهب إلى قسم البوليس.

سألت العجوز: ثم؟

fb/mashro3pdf

ردّ المانولو: ثم سوف يبلغهم السيد فرانشيسكو، كاكاسوتُّو هذا لديه هاتف وعلى اتصال دائم بالبوليس، فليبلغهم هو لأنه صديق حميم لهم.

نظرت إليه العجوز بحزن ولم تقل شيئًا.

نهض المانولو وفتح باب الكوخ، وعندما وقف بإزاء الباب وضوء منتصف النهار يغطّيه قالت له الزوجة: إنك مدين له بألفي سكود أيها الملك فلقد أعطاك زجاجتي كحول بالأجَل.

أجاب المانولو: ومن يهتمّ بزجاجتين من المشروبات الروحية؟ فليذهب إلى الجحيم.

fb/mashro3pdf

(٢)

كان فرمينو متوقفًا في إشارة المرور في شارع لارجو دو راتو. لقد كانت إشارة مرور بلا نهاية، كان يعرف هذا، والتاكسي القلق خلفه كان تقريبًا قد أسند واقى الصدمات على سيارته. يعلم فرمينو أنه بحاجة إلى التحلي بالصبر مع أعمال البلدية تلك والتي كانت تَعِدُ بمدينة نظيفة ومنسقه من أجل المعرض الدولي للمدينة. سيكون حدثًا عالميًّا، هذا ما تعلنه اللافتات الإعلانية المنتشرة في النقاط الهامَّة بمناطق المرور، إنه أحد الأحداث التي ستجعل من لشبونة مدينة المستقبل. فيرمينو كان يعلم فقط في ذلك الوقت ماذا كان مستقبله الحالي، أمَّا ما سيأتي بعد فهو لا يعلمه. كان يعنى الانتظار خمس دقائق في إشارة المرور حتى يتنحى الحفار جانبًا، وحتى لو أصبحت الإشارة خضراء لم يكن هناك ما يفعله، عليه أن ينتظر. هكذا استسلم، أشعل سيجارة ماركة "مالتيفلتر"، أرسلها إليه صديق سويسري. ضبط المذياع على برنامج "ما يطلبه المستمعون"، فقط ليعرف ما يحدث، وألقى نظرة على الساعة الإلكترونية الموجودة أمامه بأعلى المبنى المقابل. كانت تشير إلى الثانية بعد الظهر ودرجة الحرارة ٣٨. بـ... كان شهر أغسطس.

fb/mashro3pdf

كان فرمينو عائدًا من أسبوع إجازة قضاه مع صديقته في بلدة صغيرة على بحر ألنتيجيو، كانت أيامًا تعيد الحيوية، حتى ولو وجدوا المد والجزر شديدين، على أية حال فإن بحر ألنتيجيو لم يخيب ظنه كعادته. اكتشفوا نوعًا من سياحة المزارع على الشاطئ. أصحاب الشركة ألمان، كانت هناك تسع غرف فقط، ثم الغابة، والشاطئ المهجور، مزاح الحب في الهواء الطلق والمأكولات ذات الطابع المحلى، نظر فرمينو إلى نفسه في المرآة الخلفية. كان له لون برونزي جميل، كان يشعر أنه بحالة جيدة، لا يهمه شيء عن المعرض الدولي ولديه رغبة في استئناف عمله في الجريدة. ومن ناحية أخرى لم تكن رغبة بل ضرورة. ففي أثناء الإجازة أنفق آخر مرتب له ولم تعد معه نقود.

أصبحت الإشارة خضراء وتحرك البلدوزر وسار فرمينو. أتم دوران الميدان، ثم سلك شارع ألكسندر هيركولانو، ثم دخل شارع أفينيدا والبيرداد. وبعدها وجد نفسه متوقفًا بسبب المرور مرة أخرى في شارع سالندها.

هناك حادث على الطريق الرئيسي وكل السيارات تحاول أن تصطف في الشوارع الجانبية. اختار هو الطريق الخاص بالأتوبيسات وتمنى أن لا يوجد أي شرطي مرور في تلك الأنحاء. مؤخرًا أنهى فرمينو حساباته مع كاتارينا وأدرك أن الغرامات كانت تؤثر على عشرة بالمائة من دخله الشهري

fb/mashro3pdf

البسيط. ولكن ربما في الثانية ظهرًا ومع هذا الجو الحار لم يكن في شارع أفينيدا أي شرطي. وإذا وجد فسيكون الحال أكثر سوءًا. وعندما مرَّ أمام المكتبة الأهلية لم يستطع إلاّ أن يتمهل ليشاهدها بشيء من الحنين. فكر في فترات الظهيرة التي قضاها في صالة القراءة لمذاكرة روايات فيتورينى، ومشروعه الواهي لكتابة دراسة نقدية عنوانها "تأثير فيتورينى على الرواية البرتغالية في فترة ما بعد الحرب العالمية". ومع هذا الحنين ظهرت رائحة سمك الباكلاه المشوي الكريهة في مطعم الـ Self-Service بالمكتبة حيث كان يتناول غداءه على مدى أسابيع كاملة. سمك الباكلاه وفيتورينى، ولكن الدراسة النقدية لم تتم حتى الآن. من يدرى؟ محتمل أن يستأنفها عندما يكون لديه بعض وقت الفراغ.

وصل إلى شارع لوميار وسار بمحاذاة مباني فندق هوليداي إن. شيء مخيف. كان ينزل به الأمريكان متوسطو الحال الذين يبحثون عن الجمال في مدينة لشبونة ولكنهم على العكس كانوا يجدون أنفسهم في قلب حي فظيع ذي مبانٍ جديدة والطريق السريع الذي يؤدى إلى المطار وإلى الطريق الدائري الثاني. كانت دائمًا مشكلة أن يجد مكانًا للسيارة. اصطف أمام منزل خاص له بوابة إلكترونية محاولاً أن لا يسد المدخل. تبرز سيارته لأكثر من نصف متر، ولكن الصبر. فإذا أقصاها له الونش بعيدًا فإن نسبة الغرامات لديه ستزيد نقطتين على الأقل وهذا يعنى أنه لن يستطيع شراء المجلَّد الأخير من

fb/mashro3pdf

قاموس اللغة الإيطالية الجديد. لقد كان وسيلة أساسية لدراسة فيتورينى. عليه أن يتحلى بالصبر. فعلى بُعد أمتار قليلة يوجد مبنى الجريدة، وهو بناء يعود إلى السبعينيات، من الأسمنت، قبيح وسوقي الشكل ودون أي هوية. كان يقطن جميع الطوابق ناس من طبقات عادية، يعملون في وسط المدينة ويستخدمون هذه المنازل للنوم فقط. بعض المستأجرين لكي يعطوا شيئًا من الجمال للشرفات الجرداء وضعوا بها مظلة كبيرة وبعض المقاعد البلاستيكية. وعلى عكس زخارف البرجوازية الصغيرة تطل من شرفة الطابق الأخير لافتة كبيرة مكتوبة بخط قرمزي اللون تقول: أو أكونتسيمنتو "ما يجب أن يعلمه المواطن".

كانت جريدته وقد أثبت نفسه فيها بشيء من الجرأة، كان يعلم أن عليه أن يواجه عاملة التليفون ضخمة النهدين المشلولة التي تدير كل أقسام الجريدة من فوق مقعدها المتحرك، وأنه قبل أن يصل إلى غرفته الصغيرة عليه أن يمر أمام مكتب الدكتور سيلفا، رئيس التحرير، الذي يتخذ اسم عائلة والدته "Huppert" لأنه كان اسمًا فرنسيًّا أكثر أناقة وأنه عندما يتخطى مكتبه سيشعر بفوبيا الأماكن الضيقة كما كان دائمًا لأن الغرفة الضيقة ذات الحوائط الزائفة التي أبعدوه فيها لم تكن بها نوافذ. كان فرمينو يعلم كل هذا ومع ذلك تقدم بكل جرأة.

كانت المشلولة قد نامت على مقعدها المتحرك وأمام

fb/mashro3pdf

نهدها الوافر يوجد إناء معدني على حوافه شحوم. الإناء كان فارغًا. هو الغداء الذي يأتي به مطعم المأكولات السريعة الموجود في ركن الشارع. اندفع فرمينو بكل خفة ودخل المصعد. كان مصعدًا بلا أبواب مثل مصعد السلع والبضائع. توجد تحت أزراره لافتة صغيرة من الحديد مكتوب عليها: "ممنوع على الأطفال استخدام المصعد دون مرافق". وبجوارها كتب شخص ما بالقلم: "فلتذهب إلى الجحيم". وتعويضًا فإن المهندس المعماري الذي صمم ذلك المبنى الرائع فكر أن يُرَفه المصعد بشيء من الموسيقى التي تصدر من مكبر صوت صغير، كانت دائمًا موسيقى Strangers in the night. توقف المصعد في الطابق الثالث. دخلت سيدة عجوز بتسريحة شعر ملوَّن تنبعث منه رائحة فظيعة.

سألت السيدة دون أن تحيّيه: هل ستنزل؟

أجاب فرمينو: سأصعد.

قالت السيدة بلهجة حاسمة: أنا سأنزل. ثم ضغطت على مفتاح الهبوط.

أذعن فرمينو ونزل، وخرجت السيدة دون أن تحيّيه تحية الصباح وصعد هو ثانية.

وعندما وصل إلى الطابق الرابع ظل واقفًا مترددًا على درابزين السلم وسأل نفسه: ماذا أفعل؟

fb/mashro3pdf

لو كان ذهب إلى المطار واستقل طائرة إلـــى بـــاريس! باريس، حيث المجلات الكبيرة، والمراسلون والرحلات عبـــر العالم، أي الصحفي العالمي. أحياناً كانت تراود فرمينو أفكار كهذه، أن يغير حياته مرة واحدة، اختيـــار جـــذري. ضـــربة واحدة. ولكن المشكلة أنه ليست لديه نقود تذاكر الطيران غالية الثمن. إنها باريس أيضًا. دفع فرمينو الباب ودخل. المكان كان ما يُطلَق عليه فراغ مفتوح. ولكنه من البداية لم يكُن مـــصمَّمًا هكذا، شيء طبيعي. ولكن تم تنسيقه للاستعمال بأن توضع به حوائط فاصلة، يسهل إزالتها من ناحية أخرى لأنها من الطوب المثقوب.

كانت هذه فكرة الشركة التي سكنت المكان مـــن قبـــل، شركة تصدير تونة معلَّبة، وورثتها الجريدة على هذه الحالـــة، وهكذا استطاع المدير أن يتحمل المعاناة. المكتبان الموجودان أمام المدخل كانا خاويين. كانت تجلس على المكتب الأول آنسة ناضجة تقوم بمهمة السكرتيرة وعلى المكتب الثـــاني يجلـــس صحفي يعمل على الكمبيوتر الوحيد الذي تمتلكه الجريدة. أما المكتب الثالث فهو مكتب السيد سيلفا، بل Huppert كمـــا كـــان يوقّع على صفحات الجريدة.

قال فرمينو بكل ودّ: مساء الخير يا سيد هابرت.

نظر إليه السيد هابرت بصرامة.

fb/mashro3pdf

قال من بين أسنانه: إن المدير غاضب.

سأل فرمينو: لماذا؟

– لأنه لم يكن يعرف أين يعثر عليك.

برر فرمينو: ولكنى كنت على البحر.

أضاف السيد سيلفا بكل فظاظة: لا أحد يستطيع أن يظل على البحر في هذه الأجواء.

ثم نطق جملته المفضلة: تسود أجواء سيئة.

ردّ فرمينو: نعم، ولكنى كان يجب أن أعود غدًا.

لم يجب السيد سيلفا وأشار إلى مكتب المدير، المكتب ذي الزجاج المصقول بورق منقوش.

قرع فرمينو الباب ودخل في نفس الوقت. المدير كان يتحدث في الهاتف وأشار له أن ينتظر. أغلق فرمينو الباب وظل واقفا. في تلك الغرفة كان الحر شديدًا والمروحة مطفأة. ومع هذا كان المدير يرتدى سترة رمادية شديدة الأناقة ورباط عنق وقميصًا أبيض. عاد المدير يحملق إليه ثانية من رأسه إلى قدميه.

سأل بغضب: أين اختفيت؟

ردّ فرمينو: كنت على بحر ألنتيجيو.

fb/mashro3pdf

سأل المدير بلهجة أكثر غضبًا: ماذا كنت تفعل في بحر ألنتيجيو؟

قال فرمينو بتحديد: أنا في إجازة، وإجازتي تنتهي غدًا، وجئت إلى الجريدة فقط لأعرف إن كان هناك شيء جديد وهل أستطيع أن أكون مفيدًا.

قال المدير: لست مفيدًا، بل لا غنى عنك. ستسافر في قطار السادسة.

فكر فرمينو أنه من الأفضل أن يجلس. جلس وأشعل سيجارة.

سأل فرمينو: إلى أين أسافر؟

قال المدير بصوت محايد: إلى أوبرتو، بكل وضوح، إلى أوبرتو.

سأل فرمينو وهو يحاول بدوره أن يأخذ لهجة محايدة: ولماذا بكل وضوح إلى أوبرتو؟

قال المدير: لأنه قد حدث شيء فظيع، شيء فظيع سيجعل أنهار الحبر تنهمر.

سأل فرمينو: ألا يكفى مراسل أوبرتو؟

أوضح المدير: نعم، لا يكفى، إنه أمر جلل.

fb/mashro3pdf

ردّ فرمينو بهدوء: فلترسل السيد سيلفا، إن السفر يروق له، وهو هكذا سيوقع باسمه الفرنسي.

أجاب المدير: هو نائب رئيس التحرير، وعليه أن يعيد كتابة مقالات الصحفيين الرديئة، وأنت المراسل الرسمي.

اعترض فرمينو: ولكنى بدأت لتوي أنشغل بموضوع المرأة التي طعنها زوجها بسكين في مدينة كويمبرا، كان هذا قبل الإجازة بعشرة أيام فقط، ولقد أمضيت أمسية كاملة في المشرحة في كويمبرا لأسمع شهادة الأطباء الشرعيين.

أجاب المدير بكل حدّة: الصبر، أنت المراسل، ثم انظر، لقد تمّ كل شيء، حجزت لك في بنسيون في أوبرتو لمدة أسبوع وهذا فقط لكي تبدأ، فمن المحتمل أن تكون حالة ستستمرّ طويلاً.

فكر فرمينو وحاول أن يتنفس. كان يودّ أن يقول إن أوبرتو لا تعجبه، وإنهم يأكلون الكرشة في أوبرتو على طريقة أوبرتو أيضًا، والكرشة تسبب له الاشمئزاز، والطقس حارّ رطب في أوبرتو، والبنسيون الذي حجز له فيه هو – دون شكّ– مكان يسبب له الكآبة، بل قال على العكس:

ولكن يا سيدي المدير يجب أن أنهى دراستي النقدية على الرواية البرتغالية في فترة ما بعد الحرب العالمية، فهي شيء هامٌ بالنسبة إليّ، ثم إني وقّعت العقد مع الناشر...

fb/mashro3pdf

قاطعه المدير فجأة: إنه شيء مروّع، شخص بائس يجب أن نكشف الحجاب عن هويته، والرأي العامُّ متشوق، ومنذ هذا الصباح لا يتحدثون عن شيء آخر.

أشعل المدير سيجارة، وخفض من صوته وكأنه يبوح بسر وهمس:

لقد عثروا على جثة مقطوعة الرأس في منطقة ماتوسنهوس، ما زالت هويتها غير معروفة، عثر عليه رجل غجري يدعى مانولو، وأدلى بشهادة مطعون فيها ولا يستطيعون أن يحصلوا منه على كلمة واحدة أكثر مما أفصح عنه للبوليس، فهو يعيش في مخيَّم رحالة في ضواحي أوبرتو، وأنت يجب أن تخرجه من مكمنه وتجعله يتكلم، سيكون هذا هو حدث الأسبوع.

بدا المدير هادئًا، وكأن القضية قد تم حلها. فتح درجًا وأخذ منه بعض الأوراق.

أضاف: هذا هو عنوان البنسيون، ليس فندقًا فاخرًا، ولكن دونا روزا إنسانة رائعة، أعرفها منذ ثلاثين عامًا، وهذا هو الشيك: مأكل، ومسكن ونفقات أسبوع، وإذا كانت هناك مصروفات أضِفْها على الحساب. أوصيك، فإن القطار سيقلع في السادسة.

fb/mashro3pdf

(٣)

فكر فرمينو. من يعرف سبب كراهيته لمدينة أوبرتـــو. كان التاكسي يمر عبر ميدان براكا دا باتلها وهو ميـــدان راقٍ وفخم على الطراز الإنجليزي. إن مدينة أوبرتو، بالتأكيد، تبدو في هيئة إنجليزية، بواجهاتها الفيكتورية من الأحجار الرمادية والناس الذين يسيرون بشكل منظم في الشوارع. سأل فرمينـــو نفسه: هل السبب هو أنى لا أستريح مع الإنجليز؟ ممكن، ولكن ليس السبب الرئيسي.

فعلى سبيل المثال وجد نفسه مستريحًا تمامًا فـــي لنـــدن وكانت هذه المرة الوحيدة التي يذهب فيهـــا إلـــى هنـــاك. إن أوبرتو بالتأكيد لم تكن لندن، شيء واضح، كانت تقليدًا للندن، ولكن محتمل أن لا يكون لهذا السبب، هذا هو ما توصل إليـــه فرمينو. وتذكر طفولته، أعمامه في أوبرتو حيث كان يحملـــه أبواه حتمًا في كل إجازات عيد الميلاد المجيد. كانت فظيعـــة أعياد الميلاد تلك، فهي تتداعى في ذاكرة فرمينو وكأنها حدثت بالأمس. استعاد من جديد صورة العمة بيتو والعم نونو، هـــي طويلة ونحيفة دائمًا ترتدي اللون الأسود، مع تطريز بالأحجار الكريمة على الصدر. وهو سمين وبشوش متخصص في رواية

fb/mashro3pdf

النكات التي لا تُضحك أحدًا، والمنزل، كان فيلاّ طراز بداية القرن العشرين تقع في منطقة برجوازية في المدينة. أثاث بائس وأرائك يتناثر عليها تطريز يدوى الصنع، وعلى الحوائط ورود من الورق وصور قديمة بيضاوية الشكل وموروثات الأسرة التي كانت تتباهى بها العمة بيتو. أما عشاء عيد الميلاد فقد كان كابوسًا. وكانت البداية حساء القنبيط الأخضر الذي لا مفر منه، والذي كان يقدَّم في الصحون الكبيرة المصنوعة من الخزف والتي كانت فخر العمة بيتو، وطيبتها التي تحاول والدته أن تقنعه بها حتى ولو كان الحساء يسبب له نوبات تقيؤ. ثم عذاب الاستيقاظ في الحادية عشرة مساءً للصلاة المتأخرة، وطقوس ارتداء الملبس الأنيق، والخروج في الضباب البارد في شهر ديسمبر في مدينة أوبرتو. الضباب الشتوي في أوبرتو. فكر فرمينو وتوصل إلى أن كراهيته لتلك المدينة كانت مستمرة معه منذ طفولته، محتمل أن يكون فرويد لديه حق. فكر في نظريات فرويد. ليس لأنه يعرفها بتعمق ولكنها لم توحِ إليه بثقة كبيرة. أو لوكاتش مع تشخيصه الدقيق للأدب الإيطالي بأنه تعبير طبقة راقية، نعم، نعم لوكاتش، ثم إنه كان مفيدًا جدًّا من أجل دراسته عن الرواية البرتغالية في فترة ما بعد الحرب العالمية، كان لوكاتش ينفعه أكثر من فرويد ولكنْ هذا الطبيب ذا الأصل النمساوي ربما كان لديه حق في بعض الأشياء، منْ يدرى؟

سأل سائق التاكسي: ولكن أين هذا البنسيون المبارك؟

fb/mashro3pdf

كان يشعر أن من حقه أن يسأل، فهو يدور بالسيارة منذ نصف ساعة على الأقل، في البداية في الشوارع الواسعة في وسط المدينة والآن في أزقّة فظيعة وضيّقة لحيّ لا يعرفه فرمينو.

همهم السائق باستياء ودون ذوق: ليكُن، فلنأخذ وقتًا أطول.

تذكر فرمينو أن سائقي التاكسي ورجال البوليس كانوا هم الطائفتين اللتين يكرههما بشدة. ومع هذا كان عليه أن يتعامل، خصوصًا في مهنته تلك، مع سائقي التاكسي ورجال البوليس.

كانت حياته كصحفي في مجلة فضائح وموتى مقتولين وانفصال أزواج ونساء مبقورات البطون وجثث مقطوعة الرأس. فكر كيف سيكون شيئًا جميلاً أن ينجز كتابه عن فيتورينى والرواية البرتغالية في فترة ما بعد الحرب العالمية، كان متأكدًا أن هذا سيشكّل حدثًا جللاً في الوسط الأكاديمي، ومحتمل أن يفتح له أبواب بحث الدكتوراه.

توقف التاكسي تمامًا في وسط شارع صغير، أمام مبنى قديم جدًّا، واستدار السائق إليه فجأة ووجّه إليه تحية وداع من القلب.

قال بلطف: أيها الفارس هل كنت خائفا من ألا تصل،

fb/mashro3pdf

انظر، نحن في أوبرتو لا نسرق أحدًا، لا نسير مسافات بـــلا جدوى لابتزاز النقود من الراكبين، نحن لسنا في لشبونة، أتعلم هذا؟

نزل فرمينو، أخذ حقيبته ودفع الأجرة. كان مكتوبًا على الباب: بنسيون روزا الطابق الأول. يشغل المدخل حلاّق نساء، لا يوجد مصعد. صعد فرمينو على السلم المزيَّن ببساط أحمر، أو بتعبير أفضل: كان يومًا ما أحمر، وهو الشيء الذي طمأنه وكدَّره في آن واحد. كان يتذكر جيدًا البنسيونات التي يرســله إليها مديره: عشاء حزين في السابعة مساءً، غرف بها حوض وخصوصًا نساء مسنّات شمطاوات يمتلكنها.

لم يكن هكذا مطلقًا، على الأقل في ما يتعلق بـــصاحبته. دونا روزا امرأة في الستينيات من عمرها تقريبًـــا، بتـــسريحة شعر رمادي، ولا ترتدي المعطف المعتاد ذا الورود مثل باقي مالكات البنسيونات اللائي يعرفهن، ولكنها ترتدي تاييرًا رماديًّا أنيقًا ولها ابتسامة بشوش. رحّبت به دونا روزا واهتمـــت أن تشرح له مواعيد البنسيون. العشاء في الثامنة، وفى تلك الليلة كانت الوجبة كرشة على طريقة مدينة أوبرتو. إذا كان يريد أن يتناول العشاء على نفقته فعندما يخرج إلى الميدان على يمينه يوجد مقهى قديم ذو أصل عريق، ربما كان يعرفه. لقد كـــان من أقدم المقاهي في أوبرتو، مكان عريق حقًّا، حيث يتنـــاول فيه عشاءً جيدًا وبسعر زهيد، ولكن ربمـــا مـــن الأفـــضل أن

fb/mashro3pdf

يستحمّ، ألا يريد أن يستريح في الغرفة؟ كانت الغرفة الثانية على يمين الممر، وكان عليها أن تتبادل معه أطراف الحديث ولكنها ستفعل هذا بعد العشاء، حيث إنها تأوي متأخرًا إلى الفراش.

دخل فرمينو غرفته حيث تأكد انطباعه الإيجابي عن بنسيون روزا. نافذة واسعة تطل على الحديقة الصغيرة بالجانب الخلفي من المبنى، سقف عالٍ، وأثاث ريفي متين، وسرير كبير. وهناك حمام مغطًّى ببلاط به زهور وحوض، ويوجد حتى مجفف الشعر. خلع فرمينو ملابسه بهدوء وأخذ حمّامًا فاترًا. باختصار لم يكن الطقس في أوبرتو ذلك الحارّ الرطب الذي كان يخشاه، أو على الأقل كانت غرفته ذات جوٍّ منعش. ارتدى قميصًا بأكمام قصيرة وللاحتياط وضع جاكتًا خفيفًا على ذراعه وخرج. كان الطريق يعجّ بالحركة. والمَحالّ قد خفضت أبوابها ولكن ما زال نزلاء البنسيون بالنوافذ يتمتعون بالجوٍّ المنعش ويتحدثون مع جيرانهم. تمهَّل ليسمع تلك الثرثرة التي تثير لديه شيئًا من الرقة. التقط بعض العبارات من هنا وهناك وخصوصًا من فتاة ضخمة تطلّ من شرفتها. كانت تتحدث عن فريق الكرة لنادي بورتو الذي لعب اليوم السابق مع ألمانيا وفاز. الفتاة تبدو متحمسة خصوصًا لقلب الهجوم الذي لا تعرف اسمه.

وصل إلى الميدان، وفورًا رأى المقهى. لم يكن للخطأ

fb/mashro3pdf

احتمال. المبنى يعود طرازه إلى القرن التاسع عشر وله واجهة مليئة بالكلس وباب دخول محاط بإطار واسع من الخشب. اللافتة تجسّد رجلاً قصيرًا لونه أحمر يجلس على برميل نبيذ. دخل فرمينو. صالة المقهى كانت خربة، بها مناضد خشب قديمة وطاولة كبيرة مرصَّعة ومراوح كثيرة من النحاس في السقف. المناضد الأخيرة محجوزة للمطعم. ولكن ليس هناك زبائن. جلس فرمينو وهيَّأ نفسه لعشاء وافر بعد أن قرأ القائمة بكل دقّة. لقد قرر وهكذا شعر باللعاب في فمه عندما جاء نادل المطعم، الذي كان شابًّا نحيلاً له لحية صغيرة بنية اللون وشعره مقصوص مثل الفرشاة. قال النادل: المطبخ مغلق يا سيدي، يمكن فقط تقديم وجبات باردة.

نظر فرمينو إلى الساعة، كانت الحادية عشرة والنصف ولم يدرك أنه قد تأخر هكذا. على أية حال في الحادية عشرة والنصف في مدينة لشبونة يمكن تناول العشاء بكل راحة.

قال لمجرد أن يقول شيئًا: في هذه الساعة في مدينة لشبونة ما زال العشاء يقدَّم.

أجاب النادل بطريقة فلسفية: إن لشبونة هي لشبونة، وأوبرتو هي أوبرتو، ولكنك سترى أن وجباتنا الباردة لن تخيب أملك، إن الطاهية قد أعدت سَلَطة جمبري طازجة بالمايونيز من شأنها أن تُحيِي الموتى، هذا إذا سمحت لنفسي أن أقترح.

fb/mashro3pdf

وافق فرمينو، وعاد النادل بعد قليل ومعه صينية عليها سَلَطة الجمبري. قدّم له منها كمّية وافرة وبينما يقدمها له قال: فاز بالأمس فريق أوبرتو في ألمانيا، الألمان يتمتعون بالضخامة ولكن تَغَلّبنا عليهم بسرعة.

من الواضح أن لديه رغبة في الثرثرة، ووافقه فرمينو. أجاب: فريق بورتو فريق جميل ولكن ليست لديه عراقة فريق بينفيكا.

سأل النادل بسرعة: هل سيادتك من لشبونة؟

أكّد فرمينو: من وسط لشبونة.

قال النادل: فهمت هذا من لهجتك.

ثم أكمل: وماذا تفعل في مدينتنا؟

أجاب فرمينو دون أن يفكر: أبحث عن غجري إسباني.

سأل النادل: غجري إسباني؟

كرّر فرمينو: غجري إسباني.

قال النادل وكأنه يستوضح الموقف: إن الغجر ظرفاء بالنسبة إليّ، وبالنسبة إلى سيادتك؟

أجاب فرمينو: أنا أعرفهم قليلاً، بل قليلاً جدًّا.

قال النادل: ربما لأني من بارسيلوس، أتعلم؟ عندما كنت طفلاً في بارسيلوس كان هناك أجمل معرض في كل منطقة

fb/mashro3pdf

المنيو، الآن لم تعد كالسابق، عدت إليها العام الماضي وتقريبًا سببت لي ألمًا، وعمومًا في تلك الآونة كان حقًّا مشهدًا... ولكني لا أريد أن أضايق سيادتك، ربما أزعجك؟

قال فرمينو: أنت لا تزعجني مطلقًا، بل تفضل بالجلوس على منضدتي، هكذا تؤنسني، هل أستطيع أن أقدّم لك كوبًا من النبيذ؟

جلس النادل وقبِل كوب النبيذ.

استمر النادل: كنت أتحدث إلى سيادتك عن معرض بارسيلوس عندما كنت طفلاً. كان رائعًا وخصوصًا للحيوانات المخصَّصة للبيع، الثيران من سلالة مينيوتا ذات القرون الطويلة جدًّا، أتعرفها؟ بـ... لا توجد الآن، ثم الخيول والبغال والمهر الخاص بالركوب، كان أبي يعمل سمسارًا ويتاجر مع غجر إسبانيا في أثناء الصيف، كانت لديهم خيول رائعة، الغجر، وكانوا أناسًا يؤتمنون، أتذكّر الغداء الذي كانوا يقدّمونه لأبي بعد أن يكون قد أنهى صفقة، كانت مائدة طعام كبيرة في ميدان بارسيلوس وكان أبي يأخذني معه.

توقف هنيهة.

قال: لا أدرى لماذا أنا هنا أزعجك بذكريات طفولتي، محتمَل لأني أتألم لحال الغجر الآن؛ لقد أصبحوا بائسين، والأكثر من هذا أنهم يعانون من عداوة الناس.

fb/mashro3pdf

سأل فرمينو: حقًّا؟ لم أكن أعرف هذا.

أضاف النادل: إنها قصة محلّيّة سيئة، ولكن قد أرويها لك مرة ثانية، أتمنّى أن تعود لتأكل وأن يكون مطعمنا قد أعجبك.

أكَّد فرمينو: لقد كان طعامًا لذيذًا.

كان يروق له هو الآخر أن يبقى ليثرثر، ولكنه تذكّر أن دونا روزا تريد أن تتحدث إليه، وهكذا دفع الحساب وأسرع في العودة إلى البنسيون. وجدها في الصالون الصغير تقرأ مجلة حديثة. ربتت بيدها على الأريكة وهي تدعوه إلى الجلوس.

جلس فرمينو بجوارها. سألته دونا روزا إذا كان العشاء قد أعجبه. أجاب فرمينو: نعم، وأيضًا النادل هو شخص ظريف جدًّا، له علاقة ممتازة مع الغجر.

أجابت دونا روزا: نحن أيضًا لنا علاقة ممتازة بالغجر.

سأل فرمينو: نحن من؟

أجابت دونا روزا: بنسيون دونا روزا.

وأخذت تضحك ضحكة عريضة وأكملت: إن مانولو الغجري ينتظر سيادتك غدًا في منتصف النهار في مخيمهم، قبل أن يتحدث معك.

fb/mashro3pdf

نظر فرمينو إليها بدهشة.

سأل: هل توصلتِ إليه عن طريق البوليس؟

أجابت دونا روزا بهدوء: دونا روزا لا تستعين بقنوات البوليس.

أصرّ فرمينو: إذن كيف تصرفت؟

قالت دونا روزا، وهى تغمز بعينيها: للصحفي الماهر: تكفى العلاقات، ألا ترى هذا؟

سأل فرمينو: أين هذا المخيَّم؟

بسطت دونا روزا على المنضدة خريطة للمدينة كانت قد أحضرتها.

شرحت: حتى ماتوسنهوس يمكن لك أن تذهب بالأتوبيس، ثم يجب أن تستقلّ تاكسيًا، المخيَّم هنا بالضبط، أترى؟ حيث توجد هذه البقعة الخضراء. إنها أرض تابعة للبلدية، والمانولو ينتظرك عند المتجر المجاور للمخيَّم.

طوت دونا روزا الخريطة تاركة له أن يفهم أنه ليس لديها شيء آخر تقوله.

سألت: أتحمل مسجّل صوت؟

أذعن فرمينو.

fb/mashro3pdf

قالت دونا روزا: احمله في جيبك، فـالغجر لا يحبـون التسجيل.

نهضت وبدأت تطفئ الأنوار تاركة له أن يفهم أنه وقت الذهاب إلى الفراش. أيضًا فرمينو نهض وأشار ليستأذن.

سألت دونا روزا: ما عمرك؟

أجاب فرمينو بالطريقة التي يستخدمها دائمًا عندما يشعر أنه في مأزق بأن يعترف أن لديه سبعة وعشرين عامًا فقـط، كانت طريقة سخيفة ولكن لا يستطيع أن يجد طريقة أفضل.

أجاب: في الواقع ثلاثون.

همهمت دونا روزا: صغير جدًّا على عمل ردىء مثـل هذا.

وأضافت: فلنتقابل غدًا، واسترِح جيّدًا.

fb/mashro3pdf

(٤)

كان مانولو ألخيتانو يجلس على منضدة صغيرة تحت تعريشة محل البقالة. يرتدى سترة سوداء اللون وقبعة بها ثنايا عريضة، على الطراز الإسباني، يدلّ مظهره على نبل مفقود؛ يُقرأ البؤس كله على وجهه وفى قميصه المهلهَل على صدره.

كان فرمينو قد دخل محلّ البقالة من الباب الخلفي المتاخم لشارع خلفي صغير وظريف، به فيلاّت متواضعة ولكنها منسَّقة جدًّا. أما المنظر هناك على الجانب الخلفي من المكان فكان شيئًا مختلفًا تمامًا، من وراء الشبكة الممزَّقة التي تحدد ملكية متجر البقالة كان يُرى مخيَّم الغجر. ستّ أو سبع عربات مقطورة نصف مفكَّكة، وبعض الأكواخ من الكرتون، وسيارتان ماركة أمريكية طراز الستينيات وأطفال نصف عراة يلعبون في الساحة المتربة وتحت تعريشة من الأوراق الجافّة يوجد حمار وحصان يذودان الذباب بذيليهما.

قال فرمينو: تشرفنا، أنا اسمي فرمينو.

ومدّ إليه يده.

وضع مانولو إصبعين على القبعة ومدّ إليه يده.

fb/mashro3pdf

قال فرمينو: شكرًا لأنك وافقت على مقابلتي.

لم يقل مانولو شيئًا، أخرج الغليون وفكّ في موقده سيجارتين اصفرَّ لونهما، وجهُه يعبّر تعبيرًا صادقًا، وعيناه محملقتان إلى أعلى نحو التعريشة.

وضع فرمينو مجموعة أوراق وقلمًا على المنضدة الصغيرة. سأل: يمكن أن أدوّن ملحوظات؟

مانولو لم يردّ واستمر في النظر إلى التعريشة ثم قال: كم باجينس؟

كرّر فرمينو: باجينس؟

أخيرًا، نظر إليه مانولو. كان يبدو متضايقًا.

– باجينس، بارنى؟ ألا تفهم الجرنجونكا؟

فكر فرمينو أن الأمور لا تسير في اتجاهها الصحيح. شعر أنه غبيّ. وغبيّ أكثر إذا فكر في جهاز السونى الصغير الذي كان معه في جيبه وأنه كلّفه كثيرًا.

حدد مانولو: أنا أتحدث البرتغالية أيضًا، ولكن بالأكثر الجرنجونكا.

لا، في الواقع لم يكن فرمينو قادرًا على فهم اللغة الدارجة للغجر، التي كان مانولو يسمِّيها جرنجونكا. اجتهد لكي

fb/mashro3pdf

يجد حلاً للموقف وبحث عن خط منطقي مستأنِفًا من البداية.

– هل يمكنني أن أكتب اسمك؟

– أجاب مانولو وهو يضمّ معصميه، ثم وضع إصبعه على شفتيه: مانولو الملك لا يذهب إلى كاخارّاو.

فهم فرمينو أن الكاخارّاو يجب أن يكون السجن أو البوليس؛ قال: اتفقنا، لا أسماء، فلتكرّر طلبك.

كرّر مانولو وهو يفرك الإبهام والسبابة وكأنه يحصى نقودًا: كم باجينس؟

عمل فرمينو حسابات سريعة. لقد أعطاه المدير أربعين ألف سكود للنفقات الفورية. عشرة آلاف يمكن أن تكون ثمنًا عادلاً للسيد مانولو، فهو قد وافق أن يتحدث إليه، وهو الشيء الذي كان استثناءً بالنسبة إلى غجري إسباني، وقد يستطيع أن يحصل منه على أشياء أخفاها عن البوليس. وإذا كان السيد مانولو لا يعرف شيئًا أكثر من ذلك الذي قد قاله؟ وإذا كان هذا الموعد هو فقط خداع ليحصل منه على باجينس، كما كان يقول هو؟ وهكذا حاول فرمينو أن يستغرق وقتًا.

قال: الأمر يعتمد على ما ستقوله لى، وإذا كان الذي ترويه لى يستحقّ.

ردّ مانولو بضجر: كم باجينس؟

fb/mashro3pdf

وحك من جديدٍ الإبهام والسبابة. فكر فرمينو، إما أن يستمر وإما أن يترك هذا الأمر، ليس هناك شيء آخر يفعله.

قال: عشرة آلاف سكود، لا أكثر ولا أقلّ.

أصدر مانولو إيماءة موافقة غير محسوسة برأسه. همهم: زجاجة خمر.

ووضع إبهامه على فمه ملقيًا رأسه إلى الخلف.

فهم فرمينو هذه المرة بسرعة، نهض، ودخل محل البقالة ثم عاد ومعه لتر نبيذ أحمر. وفى الطريق وضع يده في جيبه وأطفأ جهاز التسجيل. لن يستطيع أن يقول لماذا فعل هذا. ربما لأن السيد مانولو يعجبه هكذا لأول وهلة. كانت تعجبه تلك الملامح الحادّة والشاردة في آن واحد واليائسة على طريقته، وصوت ذلك الغجري لا يستحق أن يُسرق عن طريق شيء إلكتروني ياباني تافه.

قال فرمينو: احكِ لي كل شيء.

وأسند مرفقيه علىٍ المنضدة وقبضتيه على وجنتيه مثلما يفعل عندما يريد أن يُركز. يمكن أن يستغنى عن المفكرة أيضًا، فذاكرته كانت تكفيه.

استعرض المانولو. باختصار، كان يعبّر عن نفسه جيدًا إلى حدّ ما، وشيء من الصبر بالنسبة إلى الكلمات باللغة

fb/mashro3pdf

الغجرية الدارجة. كان فرمينو لا يفهمها ولكنه كان ينجح في تخمين معناها. من خلال سياق الحديث. بدأ بقوله إنه لا يستطيع النوم، وإنه عاد يستيقظ في منتصف الليل، وهذا شأن المتقدمين في السن، لأن المتقدمين في السن يستيقظون ويعيدون التفكير في كل حياتهم، وهذا يسبّب لهم الضيق، لأن إعادة التفكير في الحياة الماضية هو مصدر حسرة، وخصوصًا حياة من ينتمون إلى شعب الغجر الذين كانوا نبلاء في الماضي ولكنهم أصبحوا الآن متسولين. كان مسنًّا فقط في روحه وعقله، في جسده لا، لأنه ما زال يحتفظ برجولته، كانت رجولته غير مفيدة فقط مع زوجته لأنها كانت أنثى عجوزًا، وهكذا كان ينهض ويذهب لتفريغ مثانته ليبقى هادئًا. ثم تحدث عن المانوليتو الذي كان ابن ابنه، وقال إن له عينين زرقاوين وبانتظاره مستقبل حزين، لأنه ما المستقبل الذي يمكن أن يوجد في عالم مثل هذا بالنسبة إلى طفل غجري؟ ثم بدأ يخرج عن الموضوع الرئيسي وسأله إن كان يعرف مكانًا يسمَّى جاناس. كان فرمينو يستمع إليه بإمعان. كانت تعجبه طريقة المانولو في السرد، بتلك العبارات المصطنَعة الأسلوب والمزيَّنة بكلمات باللغة الدارجة، وهكذا سأل باهتمام: جاناس؟ أين توجد؟

وشرح السيد مانولو: إنه حيّ ليس بعيدًا عن لشبونة، بالداخل، في نواحى ما فرا حيث كانت توجد كنيسة قديمة مستديرة تعود إلى المسيحيين الأوائل في الإمبراطورية

fb/mashro3pdf

الرومانية، وكانت مكاناً مقدَّسًا عند الغجر، لأن الغجر كانوا يجوبون شبه الجزيرة الأيبيرية منذ أزمان قديمة جدًّا، وكل عام في الخامس عشر من أغسطس كان يجتمع غجر البرتغال في جاناس لعمل احتفالية كبيرة. كانت حفلة غناء ورقص، آلات الأكورديون والجيتارات لا تصمت لحظة واحدة والأطعمة مجهَّزة على المراجل أسفل التلّ، ثم عند الغروب عندما تكون الشمس بالأفق، تمامًا في تلك اللحظة، عندما تصبغ أشعّتها الوادي، الذي ينتهي في صخور إيتشيريا باللون الأحمر، يطلّ القسيس الذي قام بالقداس من المحراب ليبارك حيوانات الغجر، البغال والخيول، تلك الخيول التي كانت الأجمل في شبه الجزيرة الأيبيرية، والتي كان الغجر يبيعونها بعد ذلك لإسطبلات ألتر دو خاو حيث يدرّبها الفرسان الذين يتبارزون في مصارعة الثيران. ولكن الآن، الآن ليس لدى الغجر أية خيول ويشترون سيارات مهولة، ماذا يمكن أن يُبارك؟ قد يمكن مباركة السيارات المصنوعة من المعدن؟ بالتأكيد، تموت الخيل إذا لم يقدَّم لها العلف والنخالة، ولكن السيارات إذا لم توجد النقود ليوضع بها بنزين لا تموت، وعندما يوضع البنزين تسير، لهذا السبب كان الغجر الذين لديهم بعض النقود لا يحتفظون بالخيول ويشترون السيارات، ولكن ربما يمكن مباركة السيارات.

نظر إليه المانولو بعيون متسائلة وكأنه ينتظر منه حلاً، وعلى وجهه تعبير سعادة عميقة.

fb/mashro3pdf

خفض فرمينو نظره، وكأنه هو المسئول عمَّا يحدث لشعب المانولو، ولم يجد لديه الشجاعة ليطلب منه أن يكمل حديثه. ولكن المانولو أكمل من نفسه، مع تفاصيل قد يعتبرها مهمة؛ كيف كان يتبول تحت شجرة البلوط القديمة، وكيف ر أي الحذاء الذي كان يظهر من بين النباتات الكثيفة، ثم شرح بدقة شديدة ما شاهده وهو يفحص الجسد الذي كان يرقد بين النباتات الكثيفة، وقال إنه كانت توجد على الفانلة التي كان الجسد يرتديها عبارة قام بنطق مقاطعها لأنه لا يستطيع نطقها، كانت بلغة أجنبية وكتبها فرمينو في المفكرة.

سأل فرمينو: هكذا؟ كانت مكتوبة هكذا؟

أكد المانولو، كان مكتوبًا: Stones of Portugal.

اعترض فرمينو: ولكن البوليس صرّح أن الجسد كان نصفه الأعلى عاريًا، تقول الجرائد إنه كان عاريًا من أعلى.

أكّد المانولو: لا، كانت هذه العبارة مكتوبة، تمامًا هذه.

أكمل المانولو، ولكن فرمينو كان يعرف الباقي من قبل.

كان ما رواه المانولو لصاحب البقالة وهو ما أكده بعد ذلك للبوليس. فكر فرمينو أنه ربما لا يستطيع أن يحصل على أكثر من هذا من ذلك الغجري العجوز، ولكن شيئًا ما أوحى إليه أن يُلِحّ.

fb/mashro3pdf

قال له: مانولو، أنت تنام قليلاً، هل سمعت شيئًا في تلك الليلة؟

مد مانولو الكوب وملأه فرمينو له. ابتلع مانولو النبيذ وهمهم: إن مانولو يشرب ولكن شعبه في حاجة إلى ألسيدى.

سأل فرمينو: وما الألسيدى؟

وعلى الرحب ترجمها مانولو إلى البرتغالية: معناها خبز.

كرّر فرمينو: هل سمعت شيئًا في أثناء الليل؟

قال مانولو بسرعة: مُوتورًا.

حدد فرمينو: تريد أن تقول سيّارةً؟

– سيارةً وأبوابًا كانت تُدفَع بقوة.

– أين؟

– أمام كوخي.

– وهل هناك سيارة يمكن أن تصل إلى كوخك؟

– أشار له المانولو بالسبابة إلى طريق ضيق محفور يدخل بشكل مائل من الطريق الرئيسي الذي يحاذى المخيَّم.

أكد: من هذا الطريق الضيق يمكن الوصول إلى شجرة

fb/mashro3pdf

البلّوط القديمة، والنزول عبر التل حتى النهر.

– هل سمعت أصواتًا؟

أكد المانولو: أصواتًا.

– ماذا كانوا يقولون؟

قال مانولو: لا أدرى، مستحيل أن أفهم.

ألح فرمينو: ولا حتى كلمة واحدة؟

قال مانولو: كلمة واحدة، سمعتهم يقولون كاخارًّاو.

سأل فرمينو: السجن؟

أكد مانولو: السجن.

– ثم؟

قال مانولو: ثم لا أدرى ولكن أحدهم كان معه جاتيريا.

سأل فرمينو: جاتيريا؟ ماذا يعنى؟

أشار مانولو إلى زجاجة الخمر.

سأل فرمينو: كان قد شرب، ماذا يعنى هذا، أنه كان ثملاً؟

وافق مانولو برأسه.

– كيف فهمت هذا؟

fb/mashro3pdf

– كان يضحك مثل من به سُكْر شديد.

هز مانولو رأسه من اليمين إلى اليسار.

قال فرمينو: مانولو، فكر في الأمر جيدًا فإن كل ما تستطيع أن تتذكره ثمين بالنسبة إليّ.

بدا المانولو وهو يفكر.

سأل فرمينو: في اعتقادك كم كان عددهم؟

أجاب مانولو: اثنين أو ثلاثة، ربما، لا أدرى.

– ألا تتذكر شيئًا آخر ذا أهمية؟

فكر مانولو وشرب كوبًا آخر من النبيذ. خرج صاحب البقالة على باب الفناء الصغير وتمهل وهو ينظر إليهما بشغف.

قال السيد مانولو: كاكاسوتُّو، إنه اسمه، وأنا مدين له بألفي أجواردنت[1].

أكد له فرمينو: سوف تسدد ديونك بالنقود التي أعطيها لك.

قال مانولو: واحد منهم كان يتحدث بطريقة سيئة.

---

(1) aguardente اسم عملة كما ينطقها السيد مانولو.

fb/mashro3pdf

سأل فرمينو: ما معنى هذا؟

– كان يتحدث بطريقة سيئة.

– أتريد أن تقول إنه لا يتحدث البرتغالية؟

قال مانولو: لا، هكذا: الـــ... الـــ... الـــ. اللعنـــة، الـــــ... الـــ... اللعنة.

قال فرمينو: آه، كان متلعثمًا.

أكّد مانولو: تمامًا.

سأل فرمينو: أهناك شيء آخر؟

هزّ مانولو رأسه.

أخرج فرمينو حافظة النقود وأخذ عشرة آلاف ســكود، وبسرعة مذهلة أخفاها مانولو. نهض فرمينو ومد إليــه يــده، وصافحه مانولو ووضع إصبعين على قبعته.

قال مانولو: اذهب إلى جاناس، إنه مكان جميل.

وعد فرمينو وهو يبتعد: سأذهب هناك عاجلاً أو آجلاً.

دخل المقهى وطلب من صاحبه أن يستدعى له تاكــسيًا بالتليفون.

ردّ صاحب المقهى بغلظة: لقد فات الأوان، التاكــسيات

fb/mashro3pdf

التي تُستدعى بالتليفون ترفض المجيء إلى هنا.

قال فرمينو: يجب أن أذهب إلى وسط المدينة.

أقصى صاحب المقهى الذباب بقطعة قماش متسخة وأجاب بأن هناك أتوبيسًا.

سأل فرمينو: أين المحطة؟

على بعد كيلو متر، من ناحية اليسار.

خرج فرمينو في الشمس الحارقة. فكّر، فلتذهب إلى الجحيم يا كاكاسوتو. كان الحر شديدًا، تمامًا حارّ رطب كما كان في أوبورتو. لا يمر أحد في الشوارع، ولا حتى يستطيع أن يعمل أوتوستوب. فكّر أنه بمجرد أن يصل إلى البنسيون سيكتب المقال وسيرسله إلى الجريدة عن طريق الفاكس. سوف يُنشر في خلال يومين. إنه يتخيل العنوان مسبقًا: "الرجل الذي شاهد الجثّة المقطوعة الرأس يتحدث". سيكون العنوان الرئيسي. من مراسلنا في أوبرتو. القصة كلها بالتفاصيل الدقيقة كما رواها السيد مانولو، وبالسيارة الغامضة التي توقفت أمام الكوخ في منتصف الليل، والأصوات في الظلام – جرائم وأسرار كما يريد قُرَّاء جريدته. ولكن لن يقول إن أحد تلك الأصوات كان متلعثمًا. كان فرمينو لا يدرى لماذا، ولكن سيحتفظ بهذه التفاصيل لنفسه، لن يبوح بها لقرّائه.

وعلى اتساع المنحنى في الشارع الخالي من المارة،

fb/mashro3pdf

ومع الفجر ذي اللون الأزرق الفضي، لافتة ضخمة للخطـــوط الجوية البرتغالية التي تَعِدُ بإجازة فائقة المتعـــة فـــي مدينـــة ماديرا.

fb/mashro3pdf

(٥)

يا للعجب! قالها فرمينو، كيف نستطيع أن نقول إننا لا نحب مدينة دون أن نعرفها جيدًا؟ كأنه شيء غير منطقي. إنه نقص فعليّ للجانب المنطقي. يؤكد لوكاتش أن المعرفة المباشرة للحقيقة هي وسيلة لا غنى عنها -بلا شكّ- لتكوين وجهة نظر نقدية.

دخل فرمينو هكذا إلى مكتبة كبيرة وبحث عن كتاب مرشد، وقع اختياره على إصدار حديث، كتاب أزرق جميل، به صور ملوَّنة ورائعة. اسم المؤلف هيلدر باكيكو، الذي - علاوة على الكفاءة الفائقة- كان يُبدِى حبًّا بلا حدود لمدينة أوبرتو. كان فرمينو يكره كتب الإرشاد المتخصصة والحيادية ومجهولة المؤلف التي تعطى معلومات باردة. يفضّل الأشياء التي يتم فعلها بحماسة حتى لأنه هو أيضًا في حاجة إلى الحماسة في الموقف الذي كان يوجد به.

وبهذا الكتاب المرشد بدأ يتجول في المدينة وهو يتسلى بالبحث في الكتاب عن الأماكن التي تقوده إليها خطواته الهائمة. وجد نفسه في رواسان بنتودا فيتوريا، وأعجبه المكان خاصة لأنه في ذلك الجوّ الحار كان طريقًا مظلمًا وهواؤه

fb/mashro3pdf

منعشاً حيث يبدو أن الشمس لا تدخله. بحث عن هذا المكان في الفهرس الذي كان سهل التناول ووجده في الحال في صفحة مئة واثنتين وثلاثين. واكتشف أن ذلك الشارع كان يسمَّى قديمًا رواسان ميجيل وأنه في عام ١٦٠٠ أعطى له راهب مجهول يُدعَى بريرا دى نوفيس وصفًا بديعًا باللغة الإسبانية. كان يتلذذ بهذا الوصف الفخم لهذا الراهب الذي كان يتحدث عن "منازل العظام والنبلاء"، وزراء ومستشارين وشخصيات بارزة أخرى من هذه المدينة وأراها الزمن، ولكن بقيت من حياتهم شهادات معمارية: واجهات وأعمدة من الطراز الأيوني تُذكِّر بعصر النبلاء الفخم لهذا الشارع قبل أن تحوله التغيرات التاريخية إلى طريق سوقي كما كان عليه في تلك الآونة. استمر في بحثه ووصل أمام قصر كبير، بل ومهيب. يذكر الكتاب المرشد أنه كان ملكًا للبارونة دا ريجاليرا وأنه تمّ تشييده في نهاية القرن الثامن عشر بواسطة شخص يُدعَى خوسى مونتيرو دى ألميدا وهو تاجر برتغالي في لندن، وأنه أصبح تدريجيًّا مركزًا رئيسيًّا للبريد، ثم مقرًّا لدير كرملى، ثم مقرًّا لمدرسة ثانوية حكومية، حتى أصبح مقرًّا للبوليس القضائي. توقف فرمينو لحظة أمام هذه البوابة الفخمة، البوليس القضائي. من يدرى إن كان بالداخل شخص مهتمًّا بهذا الجسد مقطوع الرأس الذي كان يتتبَّع هو الآخر آثاره غير المؤكدة؟ من يدرى إن كان هناك قاضٍ صارم منغمس في تفسير محاضر الأطباء الشرعيين الذين قاموا

fb/mashro3pdf

بعملية التشريح وأنه لا يزال يحاول أن يصل إلى هوية ذلك الجسد المقطوع الرأس؟

نظر فرمينو إلى الساعة وأكمل. كان تقريبًا منتصف النهار مجلة الأكونتسيمنتو يجب أن تكون في أكشاك أوبرتو، تصل بطائرة الصباح.

وصل إلى ميدان صغير ولم يهتم بالبحث عنه في الكتاب المرشد، توجه إلى الكشك واشترى الجريدة. قعد على أريكة. كانت جريدة أكونتسيمنتو تكرس الصفحة الأولى لهذا الحادث مع صورة بلون بنفسجي يُرى فيها صورة ظلية لجسد دون رأس يعلوه سكين يقطر دمًا. كان العنوان الكبير يقول: ما زالت الجثة المقطوعة الرأس مجهولة الهوية. كان مقاله في الصفحات الداخلية. قرأه فرمينو بدقة ور أي أنه ليست هناك تعديلات جوهرية. ولاحظ عمومًا أن الجزء الذي يتحدث فيه عن الفانلة قد تم تغييره بعض الشيء وهذا أغضبه. توجه إلى كابينة تليفون واتصل بالجريدة. بالطبع أجابت الآنسة أوديت وأدارت معه حديثًا طويلاً ومملاًّ، مسكينة، لقد كان الهاتف هو الوسيلة الوحيدة للاتصال بالعالم من فوق مقعدها المتحرك. أرادت أن تعرف إن كانوا في مدينة أوبرتو يأكلون حقًّا كثيرًا من الكرشة كما يقولون، وأجاب فرمينو أنه تجنبها. ثم إن كانت أجمل من لشبونة، وقال فرمينو إنها كانت مختلفة ولكن لها سحرها الخاص الذي كان يكتشفه. أخيرًا هنّأته على مقاله،

fb/mashro3pdf

وهو في رأيها "جذّاب"، وتركته يفهم أنه كان محظوظًا في حياته لأنه يعيش مغامرات مثيرة مثل هذه. وفي النهاية أوصلته بالمدير.

قال فرمينو: ألو، أرى أنكم تتعاملون في هذا الأمر بحذر.

ضحك المدير بسخرية.

أجاب: إنه حدث استراتيجي.

قال فرمينو: لا أفهم بعد.

أوضح المدير: انصت يا فرمينو، أنت تؤكد أن مانولو ألخيتانو قد وصف الفانلة بدقة للبوليس، ولكن البوليس أكد في تقريره أن الجثة كان نصفها الأعلى عاريًا.

فرمينو، وهو فاقد صبره تمامًا: ثم؟

أصر المدير: ثم، هناك سبب ما، لسنا نحن الذين يكذّبون البوليس، أعتقد أنه من الأفضل أن تقول إن الجثة حسب بعض الأقوال التي جُمعت لدينا ترتدي فانلة مكتوبًا عليها Stones of Portugal بفرض أن المانولو قد تخيل كل شيء.

اعترض فرمينو: ولكننا نغامر بالخبر إذا لم نذكر أن البوليس قد أخفى ما يخصّ الفانلة.

fb/mashro3pdf

أجاب المدير: ممكن أن يكون هنـــاك ســـبب وســـيكون مدهشًا إذا اكتشفته أنت.

تمالك فرمينو نفسه بصعوبة. أفكار هائلة هكذا تأتى إلى مديره، لن يستقبلوه في البوليس، فلنتخيل أنهم يـــردُّون علـــى أسئلة صحفيّ.

سأل فرمينو: وماذا لك أن تفعل إذن؟

قال المدير: فلتقدح زناد فكرك، أنت شابّ ولديك خيـــال جيّد.

سأل فرمينو: من القاضي الذي يتولى بالقضية؟

– هو الدكتور كوارتيم، أنت تعرفه جيدًا، ولكنـــك لـــن تحصل على شيء منه، لأن كل العناصر قد أبلغه البوليس بها.

اعترض فرمينو: يبدو لي أنها دائرة ملعونة.

أجاب المدير: فلتقدح زناد فكرك، إنما إرسالي لك إلـــى مدينة أوبرتو هو لإجراء هذه التحريات.

خرج فرمينو من الكابينة وهو يتصبب عرقًا. الآن يشعر أنه غاضب بطريقة لم تسبق له أبدا، اتجه إلى نافورة الميـــدان وغسل وجهه.

اللعنة، فكر، والآن؟ كانت محطة الأتـــوبيس تقـــع فـــي

fb/mashro3pdf

الزاوية بالضبط. أفلح فرمينو بطريقة خاطفة أن يستقل الأتوبيس المتجه إلى وسط المدينة. وشعر بالهدوء مع نفسه لأنه كانت معه نقاط الانطلاق الرئيسية لهذه المدينة التي بدا له شكلها الجغرافي غير مريح في البداية. طلب من السائق أن يَدُلّه على محطة أكثر قربًا لأي مركز تجارى. نزل على إشارة من السائق وهنا فقط أدرك أنه حتى لم يدفع التذكرة. دخل في المركز التجاري، وهو مساحة ضخمة استوحاه بعض المعماريين الأذكياء، وهم نوعية نادرة، من أبنية قديمة دون أن يشوهوا شكل الواجهة به. كانت أوبرتو مدينة منظمة: بالمدخل، وفى صالة واسعة مليئة بالسلالم المتحركة تنزل إلى ما تحت الأرض وتصعد إلى الطوابق العليا، توجد طاولة كبيرة وبجوارها فتاة جميلة ترتدي ملابس زرقاء اللون توزع على الزبائن كتيبات دعاية يشار فيها إلى جميع محال وسط المدينة ومكانها بالتحديد. فحص فرمينو الكتيب وتوجه بحسم إلى الممر(B) في الطابق الأول. كان المتجر يسمى "لاتى شرت إنترناشيونال"، مكان يعج بالمرايا، وكبائن البروفات والأرفف المكتظة بالبضائع. عدد من الأولاد يقومون بقياس بعض الفانلات ويتأملون أنفسهم في المرآة. توجه فرمينو إلى البائعة وهى شقراء وشعرها طويل.

قال: أودّ أن أحصل على فانلة، فانلة معينة، من نوع خاص.

fb/mashro3pdf

أجابت الفتاة: لدينا منها من جميع الأذواق.

سأل فرمينو: هل هي صناعة محلية؟

أجابت الفتاة: صناعة محلية وأجنبية، فنحن نستورد من فرنسا، وإيطاليا، وإنجلترا، وخاصة الولايات المتحدة.

قال فرمينو: حسنًا، اللون سيكون أزرق، ولكن ممكن أن يكون أي لون آخر، المهم هو المكتوب عليها.

سألت هي: أي كتابة؟

قال فرمينو: Stones of Portugal.

بدت الفتاة وهي تفكر لبرهة. لوت فمها خفيفًا، وكأن هذه الكلمات لا تعنى شيئًا لها، تناولت كتالوجًا ضخمًا مكتوبًا على الآلة الكاتبة وتفحصته بسبَّابتها.

قالت: يؤسفني يا سيدي، ليس لدينا.

قال فرمينو: ولكنى رأيتها، كانت على شخص ما قابلته في الطريق.

بدت الفتاة تفكر مرة ثانية، ثم قالت: قد تكـــون دعايـــة، لكن ليست لدينا فانلات خاصة بالدعاية، فقط فانلات للبيع.

فكر فرمينو هو الآخر. دعاية. يمكن أن تكـــون فانلـــة دعاية.

fb/mashro3pdf

قال: نعم، ولكن دعاية ل أي شـــيء، مـــاذا تعتقـــدين سيادتك أن يكون Stones of portugal؟

قالت الفتاة: آ... آ... ممكن أن تكون فرقة روك جديدة أقامت حفلة موسيقية، عادة عندما تكون هناك حفلة موســيقية يبيعون عند الدخول فانلات الدعاية، لماذا لا تجرب أن تبحث في محل أسطوانات؟ فهـم أيـضًا يبيعـون الفـانلات مـع الأسطوانات.

خرج فرمينو وبحث في كُتيِّـب الدعايـة عـن محـل الأسطوانات.

موسيقى كلاسيكية أم موسيقى حديثة؟ اختـار بـالطبع الموسيقى الحديثة. كان في نفس الممر. كان الـشابّ الواقـف على طاولة المحل يحمل سمّاعة ويسمع بكل انسجام وانتظـر فرمينو بكل صبر حتى يدرك الشابّ أنه موجود.

سأل: هل تعرف فرقة موسيقية تـسمى "سـتونس أوف بورتجال"؟

نظر البائع إليه واعتراه مظهر من يفكّر بإمعان.

أجاب: لا يبدو لي، هل هي فرقة موسيقية جديدة؟

أجاب فرمينو: ربما.

سأل البائع: أهي فرقة موسيقية حديثة؟

fb/mashro3pdf

أكد البائع: نحن على علم بأحدث الأشياء، وأحدث الفرق الموسيقية هى أي نوفوس ريكوس و أي ليزبون رافـــنس، ولكن بصراحة لا أتذكر تلك التي تبحث عنها ســـيادتك، إلاّ إذا كانت فرقة هواة.

سأل فرمينو وهو بعد فاقد للأمل: أتعتقد سيادتك أن فرقة موسيقية للهواة يمكن لها أن توزع فانلات للدعاية؟

أجاب البائع: ما بالـــك؟ أتـــدري، أحيانًـــا لا يـــستطيع المحترفون حتى فعل هذا؟ فنحن نعيش في البرتغـــال لا فـــي الولايات المتحدة.

شكره فرمينو وخرج. كانت الساعة الثانية بعد الظهـــر تقريبًا، ولم تكن لديه الرغبة في أن يبحث عن مطعم. لعلّه يريد أن يأكل شيئًا عند دونا روزا، بشرط أن لا تكون وجبة اليـــوم هي الكرشة.

fb/mashro3pdf

(٦)

كانت وجبة دونا روزا ذلك اليوم هي روخويس على طريقة مدينة منيو. قد تكون وجبة غير مفضَّلة بالأخصِّ في الجوِّ الحارِّ لمدينة أوبرتو، ولكن فرمينو كان عاشقًا لها. هي عبارة عن شرائح صغيرة من لحم الفلتو من الخنزير تُطهى في مقلاة ومعها بطاطس محمَّرة.

لأول مرة منذ وصوله يجلس في غرفة الطعام الصغيرة في البنسيون. كانت هناك ثلاث مناضد عليها زبائن. وصلت دونا روزا وأرادت أن تقدم له زبائن البنسيون، كانت حريصة على هذا. تبعها فرمينو. كان الأول هو السيد باولو، وهو الذي يستورد اللحوم منذ نحو خمسين عامًا لمنطقة سيتوبال، أصلع وضخم. الثاني هو الدكتور بيانكى، إيطالي لا يتحدث البرتغالية وكان يعبّر عن نفسه بالفرنسية العرجاء، لديه شركة تشترى الماشروم نوع بورشينى الطازج والجاف، يصدره إلى إيطاليا لأنه رأي أن البرتغاليين لا يهتمون كثيرًا بالماشروم، قال وهو يضحك إن التجارة كانت مزدهرة وإنه يأمل أن يستمر البرتغاليون في الاهتمام قليلاً بالماشروم نوع بورشينى. بعد ذلك كان هناك زوجان من مدينة أفيرو كانا يحتفلان بالعيد

fb/mashro3pdf

الفضي لزواجهما ويقضيان شهر عسل للمرة الثانية، من يدرى لماذا اختارا ذلك البنسيون؟

أبلغته دونا روز أن المدير سأل عنه وأنه بالتأكيد سيتصل به ثانية على وجه السرعة. ترك فرمينو موضوع المدير جانبًا في ذلك الوقت وإلاّ فان جميع خيرات الله التي تدور على تلك الصواني سوف تبرد. أكل بهدوء وبلذّة لأن لحم الخنزير كان لذيذاً حقًّا. طلب قهوة، واستسلم في النهاية واتصل بالجريدة.

كان الهاتف في الصالون، وفى الغرفات يوجد فقط هاتف داخليّ يتصل فقط بالاستقبال. أدخل فرمينو العملة وطلب الرقم، المدير لم يكن موجودًا، أوصلته عاملة التليفون بالسيد سيلفا الذي خاطبه فرمينو بسرعة قائلاً: "السيد هاربرت"، لكي يكون هادئًا معه. كان السيد سيلفا مجتهدًا ولديه شعور أبويّ.

قال: لقد اتصل شخص مجهول ولا يريد التحدث معنا، يريد التحدث مع المراسل، أي معك، فأعطيناه رقم تليفون البنسيون، سيتصل بك الساعة الرابعة، وفى رأيي أنه يتصل من مدينة أوبرتو.

سكت السيد سيلفا برهة.

سأل بلهجة ماكرة: هل تعجبك الكرشة؟

أجاب فرمينو أنه انتهى من أكل وجبة لم يكن يحلم بها

fb/mashro3pdf

ولا حتى في أيام الرخاء.

أوصاه سيلفا: لا تخرج من البنسيون، ممكن أن يكون شخصًا مبالغًا، ولكنى لم آخذ عنه هذا الانطباع، تعامل معه بطريقة جيدة، ربما تكون لديه أشياء هامّة يقولها لك.

نظر فرمينو إلى الساعة وقعد على الأريكة. يا للغرابة! حتى سيلفا ذلك الغبي يسمح لنفسه ويعطيه نصائح. تناول مجلة من السلّة المصنوعة من أغصان شجر الصفصاف. كانت مجلة تسمَّى هولتوس وتكرس صفحاتها لرجال الأعمال البرتغاليين والدوليّين. بدأ يقرأ تحقيقًا يتعلق بالدون دوارت دى براجانكا الطامع في عرش البرتغال والذي رُزق حديثًا بصبىّ. وكان له شارب على طريقة القرن التاسع عشر جالسًا بطريقة قوية على مقعد من الجلد ظهره عالٍ ويمسك يد قرينته المغمورة داخل كرسي منخفض لدرجةً أنه لم يظهر في الصورة سوى ساقيها ورأسها وكأنها منقسمة إلى نصفين. استنتج فرمينو أن المصور كان سيِّئًا ولكن لم يكن لديه وقت لينهى قراءة المقال، لأن الهاتف رنّ في ذلك الوقت. انتظر أن تردّ دونا روزا.

قالت بلهجة ودودة: إنه لك يا سيد فرمينو.

قال فرمينو: ألو.

همس الصوت في سماعة الهاتف: ابحث في دليل

fb/mashro3pdf

الهاتف.

سأل فرمينو: وماذا في دليل الهاتف؟

قال الصوت: Stones of Portugal، في جزء التصدير والاستيراد.

سأل فرمينو: من سيادتك؟

أجاب الصوت: هذا لا يهمّ.

سأل فرمينو: لماذا لا تتصل بالبوليس بدلاً من أن تتصل بى؟

أجاب الصوت: لأني أعرف البوليس أفضل من سيادتك.

ثم أغلق.

بدأ فرمينو يفكر. كان صوتًا شابًّا، به لكنة ظاهرة لشمال البلاد، لم يكن شخصًا متعلمًا، وهذا يُفهم من ألفاظه، ثم... ثم ماذا؟ إن شمال البرتغال مليء بشباب لهم لكنة شمالية واضحة وغير متعلمين.

أخذ دليل الهاتف من فوق المنضدة الصغيرة وبحث عن كلمة تصدير- استيراد. كان يقول: Stones of Portugal؛ فيلاّ نوفا دى جايا، أفينيدا هيرواس، دو ماد ١٢٣. نظر في كتابه المرشد ولكنه لم يساعده كثيرًا، لم يبقَ له إلاّ أن يتوجه إلى

fb/mashro3pdf

دونا روزا، وبكل صبر فتحت دونا روزا من جديد خريطة أوبرتو وأشارت له إلى المنطقة. بالتأكيد لم تكن على بعد خطوتين، كانت في الطرف الآخر، في الواقع لم تكن أوبرتو، كانت فيلاّ نوفا مدينة صغيرة مستقلّة، ولها بلدية وكل شيء، هل كان متعجلاً؟ آه، إذا كان متعجلاً فلم يكن أمامه شيء آخر سوى أن يستقلّ تاكسيًا لأنه مع وسائل المواصلات العامّة كان سيصل في وقت العشاء وهى لم تكن قادرة حتى أن تذكر له كم سيكلفه هذا الأمر، فهي لم تذهب قط إلى فيلاّ نوفا بالتاكسي، ولكن يجب أن يدفع تكلفة الفخامة.

– والآن مع السلامة أيها الشاب.

كانت ذاهبة لتستريح قليلاً، وهذا ما كانت في حاجة إليه.

أفينيدا هيرواس دومار كان طريقًا طويلاً في الضاحية به أشجار متعبة ويحاذى أراضى تحت الإنشاء، معدات إنشاء صغيرة، محالّ وفيلاّت حديثة وبها حدائق مليئة بتماثيل لأميرة الثلوج البيضاء وطيور السنونوّ من الخزف على حوائط الشرفات. رقم ١٢٣ كان مبنًى أبيض مكونًا من طابق واحد، له بوابة من الطوب وحائط متموج على الطريقة المكسيكية، وخلف المبنى كان يطل كوخ كبير مغطّى بالصاج، وعلى الحائط لافتة من النحاس مكتوب عليها Stones of Portugal، ضغط فرمينو على الزر الكهربائى وفُتحت البوابة. كانت للمبنى بوابة واحدة بها أعمدة مثل الفيلاّت الأخرى في نفس

fb/mashro3pdf

الشارع وعلى أحد الأعمدة توجد لافتة مكتوب عليها "الإدارة". دخل فرمينو. كانت صالة مفروشة بموبيليات حديثة ذات ذوق جيّد، ويجلس على منضدة من الزجاج مليئة بالأوراق رجل عجوز أصلع يلبس نظارة ويكتب على الآلة الكاتبة.

قال فرمينو: صباح الخير.

أوقف العجوز عمله ونظر إليه. ثم بادله التحية.

سأل: ما سبب الزيارة؟

شعر فرمينو بالمفاجأة. فكّر أنه كان غبيًّا حقًّا، فعلى مدى مشواره لم يفكر إلاّ في مانولو، ثم في خطيبته التي يشعر بالحنين إليها، ثم كيف سيكون ردّ فعل لوكاتش الذي بدلاً من أن يجد نفسه أمام موقف روائي لبلزاك سيجد أن عليه مواجهة واقع بسيط وعفويّ مثل الذي كان يعيشه. فكر في كل هذا ولم يفكر كيف سيقدم نفسه.

أجاب تقريبًا بلعثمة: كنت أبحث عن المدير.

قال العجوز: المدير الرئيسي في هونج كونج، سيظل بالخارج الشهر كله.

سأل فرمينو: مع من أستطيع التحدث؟

وضح العجوز: أخذت السكرتيرة أسبوعًا أجازة، وبقينا نحن أمين المخزن وأنا، ومهمتي الحسابات، هل الأمر عاجلٌ؟

fb/mashro3pdf

أجاب فرمينو: نعم ولا، بما أنى في أوبرتو في مـــرور سريع أردت أن أطرح اقتراحًا على مديرك؟

واستمر كأنه يريد أن يضيف مصداقية أكثر إلى وجوده: أعمل أنا أيضًا في نفس المجال، فلدى شـــركة صـــغيرة فـــي لشبونة.

ردّ الموظف دون أدنى اهتمام: آه.

طلب فرمينو: أيمكن لى أن أجلس لحظة؟

أشار له الموظف إلى المقعد الموجود أمـــام المنـــضدة. المقعد من القماش بلون الرمال، به مساند مثل المقاعـــد التـــي يستخدمها المخرجون. وفكر فرمينو أن مـــن أمـــد Stones of portugal بهذا الأساس كان شخصًا ذا ذوق عالٍ.

سأل بضحكته الودودة جدًّا: بماذا تعملون؟

رفع العجوز رأسه أخيرًا عن الأوراق، أشعل ســـيجارة ماركة جولواز من العلبة الموجودة على المنضدة وأخذ منهـــا نفثةً بشراهة.

قال: اللعنة، إن هذه الحسابات مع الصينيين جهنمية، فهم يرسلون التقارير بدولار هونج كونج ويجب علىَّ أن أحوِّلهـــا إلى سكود برتغالي، مع الفارق أن الدولار في هونج كـــونج لا يتذبذب سنتيمًا واحدًا، بينما عملتنا عبارة عن مربَّى، لا أدرى

fb/mashro3pdf

إذا كنت تتابع بورصة لشبونة.

وافق فرمينو ومدّ ذراعيه كأنه يريد أن يقــول: نعــم، أعرف هذا جيدًا.

قال العجوز: لقد بدأنا بالرخام، كنَّا صاحب الشركة وأنا وكلب صيد ألمانيًّا وكوخًا من الصاج.

شجعه فرمينو: آه، نعم، إن العمل بالرخام جيد في هــذا البلد.

صاح العجوز: إذا اشتغلنا، إذا اشتغلنا. ولكن يلزم تحديد السوق المناسبة. وصاحب الشركة لديه حس غير عادى. قــد يكون حالفه الحظ، ولكني لا أستطيع أن أنكر أن لديــه حــسّ رجل الأعمال، وهكذا فكّر في إيطاليا.

عبر فرمينو عن دهشته قائلا: تصدير الرخام إلى إيطاليا فكرة مدهشة بالنسبة إليّ، إن لدى الإيطاليين ما يبيعونه مــن الرخام.

صاح العجوز: أتعتقد سيادتك هذا؟ يا ســيدي العزيــز، وكنت أعتقد هذا أنا أيضًا، ولكن هذا يعني عدم امتلاك الحس وعدم معرفة قوانين السوق. أقول لك شيئًا: أتعرف سيادتك ما الرخام الأكثر قيمة في إيطاليا؟ شيء بسيط، هو رخام كرَّارا، وهل تعلم ماذا تطلب السوق الإيطالية؟ هذا سهل أيضًا، يريــد رخام كرَّارا، ولكن يا سيدي العزيــز يحــدث أن كــرَّارا لا

fb/mashro3pdf

يستطيع مواجهة هذه الطلبات، والأسباب المحددة لا أعرفهـا، فلنقل لأن اليد العاملة عالية الثمن وعمال المحاجر فوضويون ولديهم نقابات تلحّ في طلباتها، ورعاة البيئة يزعجون الحكومة لأن سلسلة جبال الألب أبوانى أصبحت مثل المصفاة، شيء من هذا القبيل.

دخن العجوز سيجارته بشراهة.

أكمل: حسنًا، بالمناسبة يا سيدي العزيز، هل تتذكر رخام إستريموتس؟

أصدر فرمينو إشارة غامضة برأسه.

قال العجوز بارتياح: نفس المسامية، ونفـس التعريـق ونفس التحمل لماكينات التنظيف تمامًا مثل رخام كرَّارا.

وتنهد العجوز كأنه قد أفشى سر القرن.

سأل: هل أوضِّح؟

قال فرمينو: نعم، وضِّح.

استمر العجوز: حسن، إن صاحب الـشركة يتـصرف بذكاء، يبيع رخام إستريموتس في كرَّارا وهم يبيعونه مرة ثانية في السوق الإيطالية على أنه رخام كرَّارا، وهكذا فإن ردهات قصور روما وحمامات الإيطاليين الثرية مغطاة برخام جميـل من كرَّارا الذي يأتى من إستريموتس، في البرتغال. ولم يرغب

fb/mashro3pdf

المدير أن يوسّع الشركة. أتعلم؟ لقد استأجر شركة إستريموتس من الباطن وهى التي تعمل في قطع كتل الرخام وإرسالها إلى سيتوبال، فقط مع تكاليف الأيدي العاملة البرتغالية، أتعلم ماذا يعنى هذا بالنسبة إلينا؟

انتظر بقليل من الصبر إجابة من فرمينو لم تأتِ.

ملايين، أجاب نفسه، ثم أكمل: وبما أن شيئًا يؤدى إلى آخر فإن المدير حاول أن يجد سوقًا أخرى، ووجده في هونج كونج بما أن الصينيين مُولَعون برخام كرَّارا هذا، وحيث إن شيئًا يؤدّى إلى آخر وآخر أيضًا فلقد ر أي المدير أنه مع التصدير جاء وقت الاستيراد وهكذا تحولنا إلى شركة تصدير واستيراد. أتعلم؟ هكذا على ما نبدو، ومع هذا المقر المتواضع، فقط لكي لا نظهر، في الواقع نحن إحدى الشركات ذات المبيعات السنوية العالية في مدينة أوبرتو، وسيادتك تعمل في نفس المجال وستفهم أنه يجب البعد عن مباحث الأموال. أتعلم أن صاحب الشركة لديه سيارتان ماركة فيرّارى واثنتان ماركة تستاروسّا يضعهم في عزبته في الريف؟ أتعلم ماذا كان يعمل سابقًا؟

أجاب فرمينو: ليست لدى أية فكرة.

قال العجوز بسعادة بالغة: كان موظفًا بالمكتب الاقتصادى بالدولة، وهذا يكفى ليربي لديه حسًّا، فبالتأكيد تدرَّج

fb/mashro3pdf

في المجال السياسي. منطقيّ أنه دون السياسة لا أحد يصل إلى شيء في هذا البلد، بدأ في إدارة الحملة الانتخابية لمن يطمح في منصب النقيب في مدينته، كان يرافقه بسيارته إلى كل المجتمعات الخطابية في منيو، وعندما تمّ انتخاب النقيب في المقابل جعلهم يعطونه قطعة الأرض هذه بثمن زهيد ويمنحونه ترخيص الشركة، ولكن بالمناسبة، فيمَ تعمل شركتك؟

أجاب فرمينو بمكر: في الملابس.

أشعل العجوز سيجارة جلواز أخرى.

سأل: إذن؟

قال فرمينو: نفتتح سلسلة محالّ في مدينه ألجارفى، خصوصًا للجينز والفانلات الغريبة، إذا كنت تبيع فانلات مكتوبًا عليها Harvard University فلن يشتريها أحد، ولكن فانلات مثل فانلاتكم نعم، ونحن نستطيع أن ننتجها بالجملة.

نهض العجوز وتوجه إلى غرفة صغيرة لها باب أكورديون وبحث في كرتونة كبيرة.

– أتقصد هذه؟

كانت فانلة لونها كحليّ مكتوب عليها Stones of Portugal، لقد كانت الفانلة التي وصفها المانولو.

نظر إليه الموظف وبسطها له.

fb/mashro3pdf

قال: فلتأخذها إذن، ولكن عليك أن تخبر السكرتيرة بها الأسبوع القادم، فأنا لن أستطيع أن أقول لها شيئًا.

سأل فرمينو: وماذا تستوردون؟

أجاب العجوز: أجهزة تكنولوجيّة عالية من هونج كونج، أجهزة هاي فاي لأبنية المستشفيات، ولهذا أنا في أزمة.

سأل فرمينو بلطف: لماذا؟

أجاب العجوز: لقد تعرضنا لسرقة منذ خمسة أيام، كان بالليل، تخيَّل، لقد وقفوا جهاز الإنذار وتوجهوا إلى حاوية الأجهزة وكأنهم يعرفون المكان جيدًا، سرقوا فقط أداتين في منتهى الدقة تستخدمان في "أجهزة تك". أتعرف ما أجهزة تك؟

أجاب فرمينو: هي أجهزة أشعّة إكس التي تعمل بالكمبيوتر.

استمرّ العجوز: وكلب الحراسة، كلبنا الألماني، لم يشعر بهم! واللصوص بالتأكيد لم يعطوه مخدرًا.

اعترض فرمينو: يبدو لي شيئًا صعبًا بيع أدوات لأجهزة التك.

قال العجوز: فلنتصور، مع كل العيادات الخاصة التي تظهر فجأة مثل الماشروم في البرتغال، ولكن لا تؤاخذني، هل تعلم سيادتك النظام الصحي لدينا؟

fb/mashro3pdf

قال فرمينو: ليس بالضبط.

شرح العجوز بكل جرأة: لهذا فإن التجهيزات الطبية تكلف غاليًا هكذا، ولكن الموضوع هو أن عملية السرقة كانت غريبة حقًّا، لا يوجد أغرب من هذا، بل، إنه قد سُرق من الحاويات بكل مهارة اثنين من محولات التيار الإلكترونية والخاصة بأجهزة تك وتُرِكت على حافّة الطريق على بعد خمسمائة متر من هنا.

سأل فرمينو: تُركت؟

قال العجوز: كأنهم ألقوا بها من النافذة، ولكنهما قد تهشَّما وكأنْ سيارة دهستهما.

سأل فرمينو: هل أبلغتم البوليس؟

قال المحاسب: بالطبع، لأن الأمر يتعلق بشيئين صغيرين بحجم قليل من السنتيمترات ويستحقّان كثيرًا من المال.

قال فرمينو: حقًّا؟

قال العجوز ببعض من الغضب: وأكثر من هذا، المدير في هونج كونج والسكرتيرة في إجازة، وكل شيء على عاتقي، حتى الساعي الذي ربما مرض.

سأل فرمينو: أي ساعٍ؟

fb/mashro3pdf

أجاب العجوز: الساعي المسئول عن التسليم، كان لـــدىّ على الأقل موظف أرسله هنا وهناك ولكنه لم يأتِ للعمل منـــذ خمسة أيام.

سأل فرمينو: أهو فتى؟

أكّد العجوز: نعم، فتى، إنه موظف غير مثبَّت جاء هنـــا منذ شهرين ليطلب عملاً وعيّنه المدير ساعيًا.

توقف فرمينو بشكل مفاجئ.

سأل: ما اسمه؟

سأل العجوز: وماذا يهم سيادتك؟!

كان يعترى لهجته شيء من الشك.

– إنه سؤال مثل أي سؤال آخر.

هكذا برر فرمينو لنفسه. قال العجوز: إنه يجعلنا ندعوه داكوتا، لأنه مولع بالأشياء الأمريكية، فأنا كنت أناديـــه دائمًـــا داكوتا، ولكن لا أعرف اسمه الحقيقي، ومن ناحية أخرى فهو غير مدوَّن في أسماء المعيَّنين، إنه موظف مؤقت مثلما قلـــت لك، ولكن لا تؤاخذني، لماذا يهمّ سيادتك كثيرًا؟

أجاب فرمينو: هكذا فقط، لأعرف.

أنهى العجوز: حسنًا، معذرة ولكن علـــىَّ أن أســـتأنف

fb/mashro3pdf

الحسابات، هذا المساء يجب أن أرسل فاكسًا إلى هونج كونج، إنها فاتورة عاجلة، إذا كنت تريد المزيد من المعلومات عليك أن تعود الأسبوع القادم، لا أستطيع أن أؤكد لسيادتك أن صاحب الشركة سيكون موجودًا، ولكن بالتأكيد ستكون قد عادت السكرتيرة.

fb/mashro3pdf

(٧)

قال فرمينو: ألو يا سيدي المدير، أنا على الطريق، أعتقد أنى قد وجدت طريقًا جيدًا، لقد حددت فائلة الجثة، إنها لشركة تصدير واستيراد في منطقة فيلاّ نوفا دى جايا، يرتدون فانلات مطابقه لتلك التي وصفها لى المانولو.

سأل المدير بفتور: وماذا بعد؟

أجاب فرمينو: كان لديهم جرسون، فتى، اختفى منذ خمسة أيام، ولكنى لم أستطع أن أعرف اسمه. هل نعلن الخبر؟

أصرّ المدير: وماذا بعد؟

قال فرمينو: لقد حدث بالشركة سرقة منذ خمسة أيام، أخذ اللصوص جهازين ذوى تكنولوجيا عالية ثم تركوهما على حافّة الطريق وسحقوهما بإطارات السيارات. الشركة اسمها ستونس أوف بورتوجال للتصدير والاستيراد، هل نعلن الخبر؟

ساد بعض الصمت ثم قال المدير: الهدوء، فلننتظر.

قال فرمينو: ولكنى أراه خبرًا قنبلة.

أمره المدير: تشاور مع دونا روزا.

fb/mashro3pdf

سأل فرمينو: معذرة سيدي المدير، كيف تكون دونا روزا لديها علم هكذا؟

حدّد المدير: إن دونا روزا تعرف هذا النوع من الأشخاص الذين يستطيعون أن يخدموا في حالتنا، بل هي سيدة أوبرتو بشكل ما.

سأل فرمينو: لا تؤاخذني، ماذا يعنى هذا؟

لاحقه المدير قائلاً: ألا تراها امرأة من طبقة راقية؟

أجاب فرمينو: بل أكثر من أن تكون في بنسيون مثل هذا.

سأل المدير: هل سمعت من قبل عن باكوس؟

لم يقل فرمينو شيئًا.

قال المدير: قديمًا، كان بارًا خرافيا يرتاده أهل أوبرتو كلها. وفى آخر الليل عندما يزيد السُكَر ويثير انفعال كل واحد على حياته كانوا يبكون على أكتاف صاحبة البار، التي كانت دونا روزا.

صاح فرمينو: هل هذا كل شيء؟

انفجر المدير في الضحك: أنصت يا فرمينو، لا تضايقني كثيرًا وابق هادئًا، فلتظل عندك مؤقتًا ولاحظ كيف

fb/mashro3pdf

تسير الأمور.

قال فرمينو: نعم، ولكن اليوم السبت، أستطيع أن أستقلّ القطار هذا المساء وأقضي يوم الأحد وصباح الإثنين في لشبونة، ما رأيك؟

معذرة أيها الشابّ، ماذا ستفعل في لشبونة الأحد وصباح الإثنين؟

أجاب فرمينو باندفاع: شيء واضح، سأظل يوم الأحد مع خطيبتي، لأني أرى أنه من حقّها، ويوم الإثنين صباحًا أذهب إلى المكتبه الأهلية.

تأهّب فرمينو ليعطى تفسيرًا مقبولاً، كان يعلم أنه يلزم شيء من الفطنة مع مديره. قال: في المكتبة الأهلية يوجد خطاب من إليوفتيورينى إلى كاتب برتغالي، قال لي هذا الدكتور لويس براتس فيريرا.

صمت المدير برهة ثم سعل في سماعة الهاتف: ومن يكون الدكتور لويس براتس فيريرا هذا؟

أجاب فرمينو: إنه خبير كبير في المخطوطات في المكتبة الأهلية.

قال المدير باستخفاف: وهذا شيء سيِّئ بالنسبة إليه.

سأل فرمينو بغباء: ماذا تعنى؟

fb/mashro3pdf

كرّر المدير: يعنى أنه شيء سيِّئ بالنسبة إليه، إنها شؤونه.

ألحّ فرمينو وهو يحاول أن يكون مهذبًا: لا تؤاخذنى يا سيدى المدير، إن الدكتور براتس فيريرا يعرف كل مخطوطات القرن العشرين المحفوظة في المكتبة الأهلية.

سأل المدير: وهل يعرف أيضًا الجثث مقطوعة الرأس؟

قال فريمينو: إنه شيء ليس من اختصاصه.

اختتم المدير: إذن إنه شيء سيِّئ له، فأنا تهمنى الجثث مقطوعة الرأس، وبالنسبة إليك أيضًا، في هذا الوقت.

وافق فرمينو: نعم، اتفقنا، ولكن لاحظ أن الخطاب الذي أتحدث عنه يتعلق بكتب الـ"تريس أبلهاس"، وسواء أكان يهمك أم لا، فإن هذه الكتب أساسية للثقافة البرتغالية في نهاية الخمسينيات، لأن الأمريكان كانوا ينشرونها وكانت تصل إلى فيتورينى، بسبب موسوعة كان قد نشرها في إيطاليا وكانت تسمى أمريكانا...

قاطعه المدير بحزم: أنصت أيها الشابّ، أنت تعمل لجريدة أكوتسيمنتو هناك ثم أنا، وجريدة أكوتسيمنتو التي تعطيك المرتب، وأنا الآن أريدك أن تبقى في أوبرتو وخصوصًا في بنسيون دونا روزا لا تذهب كثيرًا للنزهة، ولا تفكر في أساليب رفيعة، فسوف تعمل في الأدب عندما تتوفر

fb/mashro3pdf

لديك الإمكانية، اجلس على الأريكة وارو نكاتًا لدونا روزا واسمع نكاتها بالأخصّ، إنها نكات جيدة. والآن إلى اللقاء.

أغلق الهاتف "كلك" ونظر هو بيأس إلى دونا روزا التي كانت تدخل من باب غرفة السفرة.

ضحكت له دونا روزا وكأنها سمعت كل شيء: لماذا هذا العبوس يا بنى، لا تتضايق، المديرون هكذا، متسلطون، أنا أيضًا في حياتي عرفت أناسا متسلطين، يلزمنا الصبر، سوف نجلس في يوم ما هنا وسأشرح لك كيف تتعامل مع المتسلطين، المهم هو أن تنجز عملك جيدًا.

ثم أضافت بأمومة: لماذا لا تذهب وتغفو قليلاً؟ فلديك هالات زرقاء تحت عينيك، إن غرفتك منعشة والملاءات نظيفة، فأنا أجعلهم يغيرونها كل ثلاثة أيام.

وصل فرمينو إلى غرفته، وغاص في النوم الجميل الذى كان يتمناه وحلم بشاطئ ماديرا، بحر أزرق. وبخطيبته... عندما استيقظ كان وقت العشاء، ارتدى سترة ونزل، وكان محظوظًا عندما وجد وجبة من أيام الطفولة، السمك المقلىّ. تناول عشاءه بلذة. وكانت تراقبه باهتمام يقظ الخادمة الشابة، وهى فتاة ضخمة ولها شارب واضح. حاول الإيطالي الذي كان يجلس على المنضدة المجاورة أن يدير معه مناقشة حول المطبخ، وبدأ يشرح وجبة مكونة من الأنشوجة والفلفل قائلاً

fb/mashro3pdf

إنها وجبة من مقاطعة بيمنتى. تظاهر فرمينو بكل ودّ أنه مهتمّ، واقتربت دونا روزا في تلك اللحظة وانحنت على أذنه، قالت بكل عذوبة: لقد عثروا على الرأس.

راح فرمينو ينظر إلى رؤوس الأسماك التي بقيت في الطبق.

الرأس؟ سأل كالغبي: أي رأس؟

قالت دونا روزا بكل ودّ: الرأس الناقص للجثة، ولكن لا داعي للعجلة، انته من عشائك أولاً، وبعد ذلك سأعطى لك كل المعلومات عن الحالة. أنتظرك في الصالون.

لم يتركها فرمينو لتهدأ وأسرع خلفها.

قالت دونا روزا بهدوء: لقد وجدها السيد ديوكلتشانو، عثر عليها في نهر دورو، والآن اجلس واسمعني جيدًا، اجلس هنا بجوارى.

ربتت على الأريكة مرتين كما كانت تفعل دائمًا وكأنها تدعوه إلى احتساء الشاي.

أكملت دونا روزا: إن صديقي ديوكليتشانو لديه ثمانون عامًا، عمل بائعًا متجولاً ونوتيًّا، وهو مكتشف جثث ومنتحرين في نهر الدورو. يقولون إنه التقط طوال حياته أكثر من سبعمائة جثة من النهر. أجساد الغرقى يعطيها هناك للمشرحة

fb/mashro3pdf

والمشرحة تعطيه راتبًا. إنه عمله. ولكنه كان على علم بهذه الحالة ولم يسلِّم الرأس بعد إلى السلطات. وهو يعمل لحّادًا في أركو داس ألمنهاس، بمعنى أنه لا ينشغل بالجثث فقط بل أيضًا بمرقدها الدائم، فهو يشعل لها الشموع في ذلك المكان المبارك، يصلّى لها، وهكذا. الرأس يوجد لديه في المنزل، عثر عليه في النهر منذ ساعتين وأبلغني، وهذا هو العنوان. ولكن لا تنسَ عند عودتك أن تتوقف في أركو داس ألمنهاس لتصلّى من أجل الموتى، وبالمناسبة لا تنسَ آلة التصوير قبل أن يصل الرأس إلى المشرحة.

صَعد فرمينو إلى غرفته، وأخذ آلة التصوير ونزل باحثًا عن تاكسي دون أن يهتمّ بتهكمات صديقه الحاقد الذي كان يكتب عن جريدته أن العاملين في أكونتسيمنتو يستقلون التاكسيات كثيرًا. كان المشوار قصيرًا بين الطرقات الضيقة لوسط المدينة القديم. كان مسكن السيد ديوكلتشانو منزلاً قديمًا وله مدخل أجرد. فتحت له امرأة عجوز ضخمه الجثة.

قالت المرأة وهى تفسح له الطريق: إن ديوكلتشانو ينتظر سيادتك في الصالون.

كان صالون أسرة ديوكلتشانو عبارة عن غرفة واسعة فيها نجفة بها دلايات كريستال، والموبيليات تم شراؤها من سوبر ماركت موبيليا قديمة ومقلدة، بها أرجل مزينة ومغطّاة بألواح من الزجاج. وعلى طبق موجود على المنضدة

fb/mashro3pdf

الرئيسية، كما في حوادث الإنجيل، يوجد رأس. نظر إليه فرمينو لبرهة بشيء من الاشمئزاز ثم نظر إلى السيد ديوكلتشانو الذي يجلس على رأس المنضدة كأنه يرأس عشاءً هامًّا.

قال بلهجة إخبارية: لقد عثرت عليه في مصب نهر دورو، كنت قد ألقيت الصِّنَارة لصيد سمك الشوب وشبكة صغيرة لصيد الجمبري، فسقط في صِنَارات السمك.

نظر فرمينو إلى الرأس الموجود على الصينية محاولاً أن يتغلب على الاشمئزاز. ربما ظلّ في النهر منذ بضعة أيام. كان منتفخًا وأزرق اللون، وعين قد أكلها السمك، حاول أن يحدد عمر صاحب الرأس ولكنه لم يفلح في هذا، ممكن أن يكون عمره عشرين عامًا ولكن يمكن أن يكون لديه أربعون.

قال السيد ديوكلتشانو بهدوء وكأنه أكثر شيء طبيعي في العالم: يجب أن أسلّمه، إذا كنت تريد أن تصوره فلتسرع لأني قد عثرت عليه في الخامسة ولا أستطيع أن أدَّعى أكثر من هذا.

أخذ فرمينو آلة التصوير والتقط صور الرأس من الأمام ومن الجانب (البروفيل).

قال السيد ديوكلتشانو: هل رأيت هنا؟ اقترب.

فرمينو لم يتحرك، كان السيد ديوكلتشانو يشير بإصبعه

fb/mashro3pdf

إلى صدغ الرأس المقطوع: انظر هنا.

أخيرًا اقترب فرمينو ورأي الثقب. قال: إنه ثقب.

حدد السيد ديوكلتشانو: إنها رصاصة.

سأل فرمينو السيد ديوكلتشانو إن كان يستطيع أن يتصل بالتليفون، ستكون مكالمة وجيزة. اصطحبه إلى الهاتف الموجود بالمدخل. كانت سكرتارية الهاتف الآلية بالجريدة تعمل. ترك فرمينو رسالة للمدير: أنا فرمينو، عَثَر مكتشف للجثث على رأس الجثة مقطوعة الرأس في النهر، التقطتُ له صورًا، به ثقب رصاصة في الخد الأيسر، سأرسل إلى سيادتك الصور فورًا عن طريق الفاكس أو بأي طريقة أخرى، سأمرّ على وكالة لوزو ربما تستطيع أن تطبع نسخة استثنائية، لا أفكر في كتابه شيء الآن، فالتعليقات لا تجدي، سأتصل غدًا.

خرج في ليل أوبرتو الحارّ. الآن ليست لديه رغبة في أن يستقلّ تاكسيًا، ما كان يلزمه هو أن يسير على قدميه. إنها نزهة جميلة، ولكن ليس حتى النهر ولو كان على بعد خطوتين. ليست لديه أية رغبة في أن يرى النهر تلك الليلة.

fb/mashro3pdf

(٨)

تم إيقاظ فرمينو في الساعة الثامنة بالهاتف الداخلىّ. كان الصوت الخشن للخادمة ذات الشوارب: مديرك يريدك على الهاتف، يقول أمر عاجل.

أسرع فرمينو إلى أسفل وهو يرتدى الروب. ما زال كل البنسيون نائمًا.

قال المدير: ستبدأ ماكينات الطباعة بعد نصف ساعة، اليوم أعمل طبعة استثنائية، مجرد صفحتين بهما جميع الصور التي أرسلتها، لا حاجة إلى مقال، من الأفضل أن تصمت أنت الآن تمامًا، في الثالثة عصرًا سيتم نشر الوجه الغامض في كل البلد.

استعلم فرمينو: كيف ظهرت الصور؟

قال المدير: مرعبة، ولكن من يريد التعرف عليه سيعرفه.

شعر فرمينو برعشة في ظهره عندما فكر في تأثير الجريدة: أسوأ من فيلم رعب. تجرّأ وسأل بخجل: كيف سيكون ترتيب الصور؟

fb/mashro3pdf

أجاب المدير: صورة الوجه من الأمام في الصفحة الأولى، وفى الصفحتين الداخليتين الجانب (البروفيل) الأيمن والجانب (البروفيل) الأيسر، وفى الصفحة الأخيرة صورة كلاسيكية لمدينة "أوبرتو" ونهر الدورو والجسر المعدني، وطبعًا بالألوان.

صعد فرمينو إلى غرفته، واستحمّ وحلق ذقنه، وارتدى بنطالاً من القطن وفانلة لاكوست حمراء أهدته إياها خطيبته. تناول قهوة بسرعة وخرج. كان يوم الأحد والمدينة شبه خالية تقريبًا.

الناس ما زالوا نائمين ومتأخرًا سيذهبون إلى البحر. انتابته رغبة في أن يذهب هو الآخر إلى البحر، حتى إذا لم يكن معه رداء البحر، فقط ليأخذ بعض الهواء المنعش، ثم تراجع. كان معه الكتاب المرشد وفكّر أن يذهب ليكتشف المدينة، على سبيل المثال الأسواق والمناطق الشعبية التي لا يعرفها.

عندما نزل في الأزقّة الوعرة في جنوب المدينة وجد جمهرة لم يشكّ فيها. حقًّا إن مدينة أوبرتو تحتفظ ببعض الموروثات التي فقدتها مدينة لشبونة، مثلاً بعض بائعات السمك وسلال السمك على رأسهن على الرغم من أنه كان يوم أحد، ثم نداء البائعين المتجولين الذين يعيدون طفولته إلى ذهنه: أبواق سنّانى السكاكين وبائعي الخضراوات عبر شارع براكادا

fb/mashro3pdf

أليجريا، التي كانت مبهجة حقًّا كما يقول الاسم. توجد سوق صغيرة بها عربات باعة جائلين خضراء اللون حيث يبيعون كل شيء: ملابس مستعمَلة وزهورًا، وبقولاً وألعابًا شعبية من الخشب ومصنوعات من الطين. اشترى طبقًا صغيرًا من الفخار رَسمت عليه يد بسيطة برج كليريجوس. وكان متأكدًا أنه سيعجب خطيبته. وصل إلى لارجو دو بادراو، الذي كان سوقًا بلا سوق لأن الفلاحين وبائعات السمك كانوا قد اختلقوا محالَّ متنقلة في فراغ الأبواب وعلى الأرصفة في شارع روادى سانتو إلدفونسو.

وصل بعدُ إلى فونتنهاس حيث توجد سوق صغيرة للأشياء المستعملة، عربات كثيرة مغلقة لأن السوق الصغيرة هذه تعمل يوم السبت فقط ولكن بعض التجار كانوا يعملون أيضًا يوم الأحد صباحًا. توقف أمام عربة أقفاص صغيرة تبيع طيورًا غريبة. وعلى الأقفاص توجد أشرطة ورقيّة تشير إلى اسم الطائر ومكان المنشأ. معظمها يأتي من البرازيل ومادييرا.

فكّرفرمينو في مادييرا، وكيف سيكون شيئًا جميلاً أن يقضى بها إجازة رائعة، كما تَعِد اللافتات الإعلانية للخطوط الجوية البرتغالية. وبجوارها كانت توجد عربة كتب مستعملة وبدأ فرمينو يلقى نظرة عليها. عثر على كتاب قديم يتحدث عن كيف كانت المدينة تتواصل مع العالم منذ قرن مضى، أمعن النظر في فصل من الكتاب يتحدث عن الجرائد والإعلانات

fb/mashro3pdf

لذلك العصر. واكتشف أنه في بدايات القرن التاسع عشر كانت توجد جريدة تسمى أو أرتيليرو حيث كان يظهر هذا الإعلان الجميل: "الأشخاص الذين يريدون إرسال طرود إلى لشبونة أو إلى كويمبرا مستخدمين خيولنا يمكن لهم أن يودعوا بضاعتهم في محطة البريد الموجودة أمام مانيفاتورة التبغ"، والصفحة التالية كانت مكرَّسة لجريدة اسمها "أو بريوديكو دوس بوبرسل" وتظهر بها إعلانات بائعي الكرشة باعتبارها إعلانات منفعة عامة.

شعر فرمينو بإحساس حب لهذه المدينة التي شعر تجاهها من قبل بارتياب، وتوصل إلى أن جميعنا ضحايا للأحكام المسبقة وأنه دون أن يشعر لم يناقش هذه الجدلية الأساسية التي كان لوكاتش يحرص عليها.

نظر إلى الساعة وفكر أن يذهب ليأكل شيئًا، كان وقت الغَداء وتوجَّه بحاسة الشم نحو مقهى أنكورا. كان المقهى مزدحمًا، وأيضًا المنطقة المخصصة للمطعم. وجد فرمينو منضدة خالية وجلس ووصل تقريبًا الجرسون اللطيف على وجه السرعة.

سأل وهو يبتسم: هل وجدت الغجري؟

أذعن فرمينو.

قال الجرسون: سنتحدث فيما بعد لو سمحت لي، عن

fb/mashro3pdf

الغجر، إذا كنت تريد وجبة سريعة وطازجة أنصحك اليوم بالإخطبوط بالسلطة والزيت والليمون والبقدونس.

وافق فرمينو، وبعد دقيقة وصل الجرسون ومعه الصينية.

سأل: هل يضايقك إذا جلست دقيقة؟

دعاه فرمينو إلى الجلوس.

قال الجرسون بأدب: لا تؤاخذني، هل أستطيع أن أسألك عن وظيفتك؟

أجاب فرمينو: أنا صحفي.

صاح الجرسون: رائع! إذن تستطيع أن تساعدنا. أين؟ في لشبونة؟

أكّد فرمينو: في لشبونة.

همس الجرسون: نحن نتحرك من أجل غجر البرتغال، لا أعرف إذا كنت قد رأيت مظاهرات الخوف من الأجانب التي وقعت في بعض البلدان في المناطق المجاورة، هل رأيتها؟

أجاب فرمينو: سمعتهم يتحدثون عنها.

قال الجرسون: إنهم لا يريدونهم، لقد ضربوهم في مدينة

fb/mashro3pdf

ما، إنها موجة عنصرية. لا أدرى أي حزب قد أثار الشغب ولكن يمكننا أن نتصور، إننا لا نريد أن تصبح البرتغال بلدًا عنصريًّا، فهو دائمًا كان بلدًا متسامحًا، فأنا عضو في جمعية تسمَّى "حقوق المواطن" نجمع التوقيعات، هل ستوقع؟

أجاب فرمينو: بكل سرور.

أخرج الجرسون من جيبه ورقة مليئة بالتوقيعات مكتوب عليها من أعلى "حقوق المواطن".

حدّد: لا أودّ أن أجعلك توقّع عليها في المطعم، لأنه ممنوع جمع التوقيعات في الأماكن العامّة، فلدينا مراكز جمع التوقيعات منتشرة في كل المدينة، ولكن بما أن المدير لا يلاحظنا، ها هنا، توقيع هنا، بشكل عامّ، مع بيانات إثبات الشخصية.

كتب فرمينو اسمه ورقم بطاقته الشخصية وعند كلمة الوظيفة كتب: صحفي.

سأل الجرسون: هل ستكتب لنا مقالاً في جريدتك؟

قال فرمينو: لا أستطيع أن أؤكّد لك هذا، فأنا الآن مشغول في كتابة مقال آخر.

أصرّ الجرسون، تحدث في أوبرتو أشياء سيئة.

فى هذه اللحظة دخل المقهى صياح صبى كان يحمل

fb/mashro3pdf

حزمة جرائد تحت ذراعه وبدأ يدور بين المناضد وهو يقول: "العثور على رأس الجثة مبتورة الرأس، لغز أوبرتو".

اشترى فرمينو جريدة أكونتسيمنتو، ألقى عليها نظرة ثم طواها بعناية إلى أربعة أجزاء لأنه كان يشعر بضيق. وضعها في جيبه ثم خرج. فكر أنه من الأفضل أن يعود إلى البنسيون.

كانت دونا روزا تجلس على الأريكة بالصالة الصغيرة، وأمامها جريدة أكونتسيمنتو مفتوحة. خفضت الجريدة ونظرت إلى فرمينو.

همست: يا للفظاعة! يا لها من نفس مسكينة.

وأضافت سيادتك: مسكين لأنه في سنّك هذا عليك أن تواجه هذه المآسي.

تنهد فرمينو وهو يجلس بجوارها: إنها الحياة.

أصرت دونا روزا: الطامحون إلى العرش بحالة جيدة، في جريدة فولتوس يوجد تحقيق عن حفل استقبال جميل جدًّا في مدريد، إنهم جميعًا في أناقة هكذا.

في هذه اللحظة رنّ الهاتف وذهبت دونا روزا لترد، وكان فرمينو يلاحظها. عملت دونا روزا إشارة برأسها وسبابتها تناديه وهى تومئ مرتين.

قال فرمينو: ألو.

fb/mashro3pdf

سأل الصوت: هل معك ورقة وقلم؟

تعرّف فرمينو فورًا الصوت الذي اتصل به المرة السابقة.

أجاب: معي ورقة وقلم.

قال الصوت: لا تقاطعني.

هدّأه فرمينو: لن أقاطعك.

قال الصوت: الرأس هو رأس داماشينو مونتيرو، لديه ثمانية وعشرون عامًا، كان يعمل ساعيًا في شركة Stones of Portugal، كان يسكن في شارع روا دوس كانا ستريروس، الرقم ستجده سيادتك، إنه في منطقة ريبيرا، أمام نافورة، وأخبِر سيادتك أسرته، فأنا لا أستطيع أن أقوم بهذا لأسباب لا وقتَ لأشرحها لك، إلى اللقاء.

أغلق فرمينو الهاتف وطلب رقم الجريدة فورًا وهو ينظر إلى الملحوظات التي دوّنها في المفكرة. سأل عن المدير ولكن عاملة التليفون أوصلته بالسيد سيلفا.

ردّ السيد سيلفا: ألو، هابرت.

قال فرمينو: أنا فرمينو.

سأل السيد سيلفا بلهجة ساخرة: هل الكرشة جميلة؟

fb/mashro3pdf

قال فرمينو وهو يحدد جيدًا الاسم: اسمع يا سيلفا، لماذا لا تذهب في داهية؟

ساد شيء من الصمت في الجانب الآخر، ثم سأل السيد سيلفا بصوت مضطرب: ماذا قلت؟

قال فرمينو: لقد فهمتَ جيدًا، والآن أوصلني بالمدير.

سمع موسيقى ثم جاء صوت المدير.

قال فرمينو: اسمه داماشينو مونتيرو، لديه ثمانية وعشرون عامًا، كان يعمل ساعيًا لدى شركة Stones of Portugal، الموجودة في فيلاّ نوفا دى جايا، سأذهب أنا لأخبر الأسرة، هي في منطقة ريبيرا، ثم أذهب إلى المشرحة.

أجاب المدير باستخفاف: الساعة الرابعة الآن، إذا استطعت أن ترسل إليّ التحقيق سنخرج بطبعة استثنائية في نحو الساعة التاسعة غدًا، فطبعة اليوم نفدت في ساعة واحدة، وتذكّر فإن اليوم الأحد وكثير من الأكشاك مغلَق.

قال فرمينو دون اقتناع: أحاول.

أصرّ المدير: ضروري، وأوصيك بكثير من التفاصيل الجذّابة، وركّز على الأشياء المؤثّرة والمأساوية مثل قصة مصوَّرة.

أجاب فرمينو: ليس هذا هو أسلوبي.

fb/mashro3pdf

ردّ المدير: فلتبحث لنفسك عن أسلوب آخر. الأسلوب الذي ينفع جريدة أكونتسيمنتو أوصيك، يا ليته يكون مقالاً طويلاً جميلاً.

fb/mashro3pdf

(٩)

إن مسرح أحداث هذه القصة الحزينة والغامضة و- إذا أردنا أن نضيف - الوحشية هو مدينة أوبرتو الضاحكة والدؤوب. هو هكذا تمامًا: أوبرتو مدينتنا البرتغالية جدًّا، مدينة جميلة تداعبها التلال الناعمة ويشقّها نهر الدورو الهادئ. تسبح فيه منذ أزمان بعيدة مراكب رابيلوس المميزة المحمَّلة بالبراميل المصنوعة من خشب البلّوط التي تحمل النبيذ الممتاز إلى مخازن المدينة والذي عندما يعبّأ في زجاجات أنيقة يسلك طريقه إلى أبعد بلاد العالم مسهمًا في الشهرة الدائمة لبلدنا، كأحد أكثر الخمور اعتبارًا في العالم.

وإن قُرّاء جريدتنا يعرفون أن هذه القصة الحزينة والغامضة والوحشية إنما تتعلق مع كل هذا بجثة مقطوعة الرأس: البقايا الميتة والبائسة لشخص مجهول مشوَّه بطريقة فظيعة، وقد تركه القتلة في أرض وعرة في الضاحية كأنه حذاء قديم أو وعاء مثقوب.

وللأسف يبدو أن الأمور تسير هكذا في بلدنا حتى يومنا هذا. بلد قد حصل مؤخرًا على الديمقراطية وانضم إلى الاتحاد الأوروبي مع أكثر البلاد حضارة وتقدمًا في القارة القديمة. بلد

fb/mashro3pdf

به ناس أمناء ومجتهدون يأوون بالليل إلى منازلها بعد يوم عمل شاقّ ويرتعدون عندما يقرؤون الأخبار التي تبثّها للأسف الصحافة الحرة والديمقراطية مثل هذه الجريدة حتى إذا كانت تفعل هذا بقلب يقطر دمًا.

وهو حقًّا بقلب دامٍ وضيّق عميق كان مراسلكم في أوبرتو مجبَرًا بدافع من أخلاقيات المهنة على وصف القصة الحزينة والغامضة والوحشية التي عاشها هو شخصيًّا. قصة تبدأ في أحد الفنادق الكثيرة في هذه المدينة، حيث يتلقى مراسلكم مكالمة تليفونية مجهولة: لأنه يتلقى عشرات من المكالمات المجهولة مثل جميع الصحفيين الذين يتتبعون القضايا الصعبة. وهو يردّ على المكالمة بارتياب الصحفي القديم المجرّب المؤهَّل للتعامل مع أي كاذب مريض بداء المبالغة يقول له إن القاضي المساعد فاسد أو إن زوجة مدير نادٍ رياضيّ معيَّن تذهب إلى الفراش مع مصارع ثيران... بل على العكس، إن الصوت حاسم ومتسلطٌ وبه لكنة ملحوظة لشمال البلاد: صوتٌ شابّ، يمكن أن يكون جريئًا إن لم يكن يتحدث بلهجة هادئة. قال له: الرأس للسيد داماشينو مونتيرو، لديه ثمانية وعشرون عامًا، وكان يعمل ساعيًا في شركة Stones of Portugal، المقيم في ديبيرا في شارع روا دوس كانا ستريروس، لا أعرف الرقم لأنه لا يوجد رقم على المنزل الذي يوجد أمام صنبور المياه، أبلغ سيادتك عائلته لأني لا أستطيع أن أبلغهم لأسباب لا وقت لأشرحها لسيادتك، إلى

fb/mashro3pdf

اللقاء.

يبقى مراسلكم دهِشًا وهو صحفي في الخمسينيات من عمره عاش على مدى حياته المواقف الأكثر رعبًا يجب عليه أن يتحمل العبء المؤلم والديني في الوقت نفسه بأن يحمل إلى أسرة الضحية خبر الوفاة. ما العمل؟ إن مراسلكم يساوره الشكّ، ولكنه لا يترك نفسه ضحية للإحباط. يعلم أن مهنته تتطلب مهامَّ مثل تلك، مؤلمة، ولكنها حتمية. ينزل إلى الطريق ويستقل تاكسيًا إلى ريبيرا، إلى شارع دوس كانا ستريروس. وهنا ينفتح مشهد آخر لمدينة أوبرتو الضاحكة والدؤوب، والتي لا يناسبها قلم مراسلكم لأنه يلزمه عالم اجتماع أو عالم في أصول الجنس البشرى، ومن الواضح أن مراسلكم ليس هكذا.

ريبيرا هذه هي المنطقة الأكثر شعبية في المدينة. ريبيرا المبجَّلة، مدينة الحرفيين وصنَّاع البراميل والشعب البسيط في القرون الماضية والتي تقع على ضفاف نهر الدورو، ريبيرا هذه التي يحاول بعض المرشدين السياحيين السطحيين أن يُظهِروها على أنها المكان الأكثر جمالاً في المدينة. وعلى هذا، كيف تكون في الواقع ريبيرا هذه؟ مراسلكم لا يريد صياغة بلاغة رخيصة، لا يريد أن يلجأ إلى أمثلة أدبية بارزة، ويعلّق الحكم. يقتصر على أن يشرح لكم المنزل، فالتسمية هكذا، هو منزلٌ مثل كثير من أمثاله في ريبيرا، منزل عائلة الضحية. يُستخدم المدخل كمطبخ أيضًا، به موقد غاز بائس

fb/mashro3pdf

وصنبور وحائط من الكرتون يفصل المدخل عن غرفة مقبرة وهى غرفة نوم والدَى داماشينو مونتيرو. أمّا غرفة داماشينو مونتيرو فهي مختلَقة تحت سُلّم المبنى حيث يدخل الشخص بها وهو مطأطئ الرأس، بها مرتبة وغطاء من نوع مكسيكى وصورة كبيرة (بوستر) لهندىّ يُدعَى داكوتا على الحائط. الحمّام في الفناء وهو تستخدمه كل المنازل القريبة.

استطاع مراسلكم الذي كان يحمل هذا الخبر الفظيع أن يقول بلعثمة إنه صحفىّ من لشبونة يتابع حالة الجثة مقطوعة الرأس، استقبلته الأم، وهى امرأة لديها خمسون عامًا تقريبًا ومظهرها مريض، قالت له إنها حتى الشهر الماضي كانت تحصل على مرتب من غسيل الملابس لدى بعض عائلات أوبرتو، ولكنها الآن تخلّت عن العمل لأنها تعانى من النزيف، وشخّص الطبيب أن لديها ورمًا حميدًا وهى عالجت نفسها لدى طبيبة شعبية في أوبرتو تستخدم التراكيب الدوائية، لكن التراكيب الدوائية لن تفيدها، بل زاد النزيف، والآن يجب أن تدخل المستشفى، ولكن في الوقت الحالي لا يوجد سرير خالٍ، وهكذا يجب أن تنتظر؟ بالماضى كان زوجها السيد دومنجوس يعمل صانع سلال ولكنه منذ أن توقف عن العمل بدأ يذهب إلى الحانة كل مساء. وهو يتناول دواء أنتابوس لأنه أصبح مدمن كحوليات. ولكن بما أنه يتناول الأنتابوس كما أمره الطبيب ويشرب كحوليات في نفس الوقت فهو يعانى من نوبات تسمُّم تجعله يتقيأ طوال يوم كامل. وهو هناك يتقيأ في

fb/mashro3pdf

غرفته. قالت الأم السيدة ماريا دى لورد إن داماشينو كان هو الابن الوحيد. وكان لديهم ابنه عمرها واحد وعشرون عامًا هاجرت إلى بروكسل لتعمل نادلة في بار، ولكنهم لا يسمعون عنها شيئًا منذ وقت طويل.

اضطُرّ مراسلكم إذن أن يبلغ المرأة المسكينة الثكلى أن الرأس يوجد في مشرحة معهد الطب الشرعي وأنه ضروري أن تتعرف عليه. هُرعت الأم البائسة إلى الغرفة وعادت بعد لحظة مرتدية صندلاً أسود بكعب عالٍ وشالاً مزخرَفًا. قالت إن هذه الملابس قد أهدتها إليها مغنّية تُدعَى بوربوليتا نوكتورنا تعمل في أوبرتو حيث كان ابنها داماشينو يذهب لإجراء بعض الإصلاحات الكهربائية، وإنها كانت الملابس الأنيقة الوحيدة لديها.

كان الطبيب قد ارتدى لتوّه زوجين من الجوارب ويأكل سندوتشًا عندما وصل مراسلكم والأم المسكينة إلى معهد الطب الشرعي بعد أن بحثا بلا جدوى عن وسيلة مواصلات. كان طبيبًا شابًّا ولطيفًا مظهره رياضي. سأل إذا كنّا قد أتينا للتعرف، وأوضح أنه كان متعجلاً لأن هناك مباراة هوكى بالباتيناج لفريق إنفكتوس مساءً، وهو يلعب فيه حارس مرمى. وقادنا إلى الصالة المجاورة، و...

على كلٍّ، كل ما أتجنب وصفه لقرائي، ولكنهم يستطيعون أن يتصوروه، هو ردّ فعل الأم المسكينة... صرخة

fb/mashro3pdf

محشرجة: داماشينو! ابنى داماشينو!

ونحيب كأنه حشرجة، وارتطام على الأرض؛ سقطت الأم المسكينة قبل أن يسعفها أحد.

كان الرأس، ذلك الرأس المخيف، موضوعًا على منضدة من الرخام مثل صنم أمازونى. كان مقطوعا بدائر الرقبة بشكل منتظم ومحدَّد وكأن هذا العمل قد تم بمنشار كهربى. الوجه كان منتفخاً وأزرق، ذلك لأنه من المحتمَل أن يكون قد بقى في النهر لبضعة أيام، ولكن الملامح كان يمكن التعرف عليها: ملامح شاب واضحة ومنسَّقة يُلمح بها نُبل شعبي: الشعر أسود داكن، والأنف رفيع والفك قوىّ. داماشينو مونتيرو.

رفعت دونا روزا عينها عن الجريدة، نظرت إلى فرمينو وقالت: لقد أثّر فىّ، فهو واقعىّ جدًّا ومكتوب بطريقة كلاسيكية. حاول فرمينو أن يشرح: ليس أسلوبى بالضبط، ولكن... تمّت مقاطعته، صاحت دونا روزا: ولكن إذا كان مديرك متحمسًا ويقول إن الطبعة الاستثنائية نفدت سريعًا...

علّق فرمينو: ياه!

قالت دونا روزا بإعجاب: أنتم شجعان، هذا هو ما يعجبنى، جريدة جريئة، ليست مثل مجلة فولتوس التي تتحدث فقط عن حفلات استقبال راقية.

fb/mashro3pdf

قال فرمينو: قال لى المدير إن جريدتي تدعم عائلة مونتيرو من أجل حياة كريمة ونحن في حاجة إلى محامٍ. فقط ليس لدينا الكثير، يلزمنا محامٍ يتساهل معنا في النفقات، ويقترح علىّ أن أطلب منك هذا، دونا روزا، يقول إن سيادتك بلا شك تعرفين محاميًا يمكن أن يعمل في قضيتنا هذه.

أكّدت دونا روزا: بالتأكيد أعرف، متى تريد مقابلته؟

قال فرمينو: غدًا مناسب جدًّا.

سألت: متى؟

فكر فرمينو: لا أعرف، في وقت الغداء مثلاً، يمكن أن أمرّ عليه وأدعوه إلى الغداء، ولكن من يكون؟

ضحكت دونا روزا وتنهدت.

قالت: فرناندو ديوجو ماريا دى خيسوس دى ميللو سيكويرا.

صاح فرمينو: يا خبر! يا له من اسم!

أضافت دونا روزا: ولكن إذا ناديته به لن يعرفه أحد، يجب أن تقول لوتون المحامى، هذا هو الاسم الذي يعرفه به الجميع في أوبرتو.

سأل فرمينو: هل هذا اسم شهرة؟

fb/mashro3pdf

أجابت دونا روزا: اسم شهرة، لأنه يشبه ذلك الممثل الإنجليزي الضخم الذي كان يجسّد دائمًا دور المحامى.

سأل فرمينو: أتقصدين تشارلز لوتون؟

قاطعته دونا روزا بحسم: يقال لوتون في أوبرتو.

ثم أضافت: ينتمي إلى عائلة من نبلاء الماضي التي كانت تملك كل المنطقة تقريبًا في القرون الماضية، ولكنها الآن فقدت كل شيء. إنه عبقري، إذا رأيت ملابسه لن تعطيه مليمًا واحدًا، ولكنه عبقري، لقد تلقّى دراسته بالخارج.

طلب فرمينو: معذرة دونا روزا، لماذا سيقبل الدفاع عن حقوق عائلة داماشينو مونتيرو؟

أجابت دونا روزا: لأنه محامى البؤساء، فلقد دافع طوال حياته عن الفقراء فقط، فهذه رغبته.

أجاب فرمينو: متى وأين أستطيع أن أقابله؟

أخذت دونا روزا قطعة ورق وكتبت بها عنوانًا.

قالت: سأدبِّر أنا الموعد، لا تشغل بالك، سأذهب لمقابلته في منتصف النهار.

فى هذا الوقت رنّ جرس الهاتف. ذهبت دونا روزا لتردّ ونظرت إلى فرمينو وهى تشير بطريقتها المعتادة في ندائه

fb/mashro3pdf

بسبابتها.

قال فرمينو: ألو.

قال الصوت: تمّ التعرّف، لقد كنتُ محقًّا كما ترى.

قال فرمينو بسرعة منتهزًا الفرصة: اسمع، لا تغلق الخط، سيادتك في حاجة إلى أن تتحدث، أخمّن هذا، فلديك أشياء هامّة تقولها وتريد أن تقولها لي، وأنا أيضًا أريدك أن ترويها لي.

قال الصوت: بالتأكيد ليس في الهاتف.

قال فرمينو: بالتأكيد ليس في الهاتف، فلتقل لى متى وأين.

ساد في الجانب الآخر بعض من السكون.

طلب فرمينو: غدًا صباحًا؟ أيناسب سيادتك غدًا صباحًا في التاسعة؟

قال الصوت: حسنًا.

سأل فرمينو: أين؟

قال الصوت: في سان لاتزارو.

سأل فرمينو: ماذا يكون؟ فأنا لست من أوبرتو.

fb/mashro3pdf

أجاب الصوت: إنها حديقة عامة.

سأل فرمينو: كيف سأتعرف على سيادتك؟

سأتعرف عليك أنا، اختر مقعدًا معزولاً وضع جريدتك على ركبتيك، وإذا وجدت أحدا معك لن أتوقف.

وأغلق الهاتف (كلك).

fb/mashro3pdf

(١٠)

كان يوجد أمامه في الحديقة ذات الطراز الإنجليزي رجل ذو شعر رمادي يرتدى رداءً رياضيًّا ويمارس التمارين الرياضية يقوم بركضة بسيطة من حين إلى آخر رافعًا قدميه عن الأرض بصعوبة ثم يعود ويسير بجوار كلب دوبرمان قابع ويحتفل به كل مرة يعود فيها. الرجل يبدو سعيدًا جدًّا كأنه يقوم بأهمّ شيء في العالم.

نظر فرمينو إلى الجريدة التي كان يضعها مطوية جيدًا على ركبتيه. كانت لأكونتسيمنتو، بها العنوان الكبير للطبعة الاستثنائية. طوى فرمينو ذلك الجزء من الجريدة وترك ظاهرًا العنوان الرئيسي فقط. تناول حلوى من جيبه وانتظر. لم تكن لديه رغبة في ذلك الوقت في التدخين، ولكن من يدرى لماذا أشعل سيجارة؟ مرت أمامه سيدة عجوز معها حقيبة المشتريات وطفل في يد أمه. أما هو فكان ينظر بهدوء إلى الرجل الذي يمارس التمارين الرياضية وحاول أن يظل هادئًا عندما جلس شاب على الجانب الآخر من المقعد. نظر إليه فرمينو في الخفاء. كان شابًّا لديه نحو خمسة وعشرون عامًا، ويرتدى رداء العمال الأزرق وينظر بهدوء أمامه. أشعل الشابّ

fb/mashro3pdf

سيجارة، وسحق فرمينو سيجارته على الأرض.

همس الشابّ: كان يريد أن يسرقهم ولكنهم سرقوه.

سكت الشابّ وظل فرمينو في صمت. كان صمتًا بدا له أنه بلا نهاية. أما الرجل الذي كان يمارس التمارين الرياضية فقد مَّر أمامهما بشيء من الجرأة.

سأل فرمينو: متى حدث هذا؟

قال الشابّ: منذ ستة أيام، ليلاً.

قال فرمينو: اقترب فإني لا أستطيع أن أسمعك جيدًا.

اقترب الشابّ وهو يمسح على المقعد.

ترجّاه فرمينو: حاول أن تشرح بشكل منطقيّ وخصوصًا تسلسل الأحداث، وخذ في اعتبارك أنى لا أعرف شيئًا، أفهِمْنى.

استأنف الرجل ذو الشعر الرمادي التمارين الرياضية أمامهما في الحديقة. سكت الشابّ وأشعل سيجارة أخرى. وأخذ فرمينو حلوى أخرى.

قال الشابّ بهمهمة: كل شيء بسبب الحارس الليلي لأنه أتفق مع اجريللو فردى.

كرّر فرمينو: من فضلك، بشيء من التعقل، حاول أن

fb/mashro3pdf

تشرح بطريقة منطقية.

بدأ الشابّ يتحدث بصوت منخفض وهو يحملق في الحديقة.

كان يوجد حارس ليلي في Stones of Portugal حيث كان داماشينو يعمل ساعيًا، مات فجأة بسبب غفوة، كان هو الذي يتلقى المخدرات في الحاويات ويعطيها للجريللو فردى والجريللو فردى يروّجها في بترفلاي أي في مدينة بودبوليتا نوكتورنا، هكذا كان المسار.

سأل فرمينو: من يكون الجريللو فردى؟

أجاب الشابّ: هو عريف في الحرس الوطني والبوربولينا نوكتورنا. بوتشينس بترفلاي هى ديسكوتيك على الشاطئ، المكان ملكه، ولكنه سجله باسم زوجة أخيه، هذا العريف خبيث، ومن هناك كانت تروَّج المخدرات على كل شواطئ أوبرتو.

قال فرمينو: أكمل.

كان الحارس الليلي قد اتفق مع بعض الصينيين من هونج كونج الذين كانوا يدسون المخدّرات في حاويات الأجهزة ذات التكنولوجيا العالية. لم تكن الشركة تعرف عن هذا شيئًا، كان يعرفه فقط حارس الليل وطبيعي الجريللو فردى الذي كان يقوم بجولته الليلية كل شهر ليأخذ الطرود.

fb/mashro3pdf

ولكن داماشينو أيضًا علم بالأمر، لا أعرف كيف. وهكذا في اليوم الذي حدثت فيه لحارس الليل غفلة، مرَّ داماشينو عليّ في ورشتي وقال لي: ليس من العدل أن يأخذ الحرس الوطني كل خيرات الله هذه، هذا المساء سنصل نحن أولا، لأن الجريللو فردى سيمر غدًا، غدًا هو يومه. قلت له: داماشينو، أنت مجنون، نحن لا نستطيع أن نعبث مع هؤلاء، سينتقمون بعد هذا، أنا لست موجودًا، انسَ.

مرّ هو بمنزلي في الحادية عشرة مساءً، لم تكن معه سيارة وطلب منى أن أصطحبه بسيارتي! كان يكتفي بهذا، أي أن أوصله، وإذا كنت لا أريد أن أدخل من البوابة فكان يصبر ويفعل كل شيء بمفرده، ولقد أستغل صداقتنا.

أوصلته هكذا إلى هناك، وعندما وصلنا سألني إن كنت أريد أن أتركه يذهب بمفرده حقًّا. وأنا تبعته، دخل هو بكل ثقة وكأن شيئًا لم يكن. كانت معه مفاتيح مكاتب، أشعل النور، وهذا كل شيء. بحث في الأدراج ليعثر على الأرقام السرية للحاويات، فكل حاوية لها فتحة برقم سرى.

كان شيئًا سهلاً جدًّا، ثم ذهب داماشينو ليفتح باب الحاوية، ومن الواضح أنه كان يعرف تمامًا أين كانت البضاعة لأنه قد عاد بعد خمس دقائق. كان معه ثلاثة أظرف بلاستيكية كبيرة مليئة بالبودرة، أعتقد إنها كانت هيروينًا خامًا، وجهازان إلكترونيان أيضًا. قال: "انتهينا، فلنأخذ هذه أيضًا، سنبيعهما

fb/mashro3pdf

لعيادة خاصة لإستوديل محتاجة إليهمًا. وفى هذه اللحظة سمعنا ضجيج سيارة.

تقابل الرجل ذو الشعر الرمادي الذي كان يمارس التمارين الرياضية مع شخص، كانت سيدة شعرها قصير، حيّته تحيّة صداقة. ثم عبر الاثنان الحديقة ووصلا إلى أول الطريق الضيّق، تمامًا أمام المقعد. كانت السيدة ذات الشعر القصير تقول إنها لم تكن تتوقع أن تجده يمارس الرياضة في الحديقة، وكان السيد ذو الشعر الرمادي يرد بأن إدارة بنك مثل بنكه كانت عملاً له نتائج سيّئة على فقرات الرقبة. كان الشابّ قد توقف عن الحديث وينظر إلى الأرض.

قال فرمينو: أكمل.

أجاب الشابّ: يوجد هنا ناس كثيرون.

أقترح فرمينو: فلنغيّر المقعد.

أصرّ الشابّ: يجب أن أذهب من هنا.

حثّه فرمينو: فلتحاول على الأقل أن تنهى بسرعة.

بدأ الشابّ يتحدث بصوت منخفض وكان فرمينو يفهم بعض الأشياء والبعض الآخر لا يفهمه. فهم أنه عندما سمع صوت السيارة دخل في غرفة صغيرة، وأنها كانت فرقة عسكرية صغيرة من الحرس الوطني يقودها المدعو جريللو

fb/mashro3pdf

فردى، الذي أمسك داماشينو من عنقه وصفعه أربع أو خمس مرات وأجبره على أن يذهب معهم، رفض داماشينو وأجابه أنه سوف يشوه سمعته لأنه سيعلن أنه مروّج مخدّرات، وهنا بدأ جنود الفرقة العسكرية يوجهون له الصفعات ثم وضعوه في سيارة وذهبوا.

قال الشابّ بعصبية: سأذهب، الآن يجب أن أذهب.

قال فرمينو: انتظر لحظة من فضلك.

انتظرَ الشابّ.

سأل فرمينو بحذر: هل لديك استعداد أن تشهد؟

فكر الشابّ. أجاب: أودّ هذا، ولكن من سيحمينى؟

ردّ فرمينو: محامٍ، لدينا محامٍ جيد.

وأكمل ليكون أكثر إقناعًا: وكل الصحافة البرتغالية، فلتثق في الصحافة.

نظر إليه الشابّ لأول مرة. كانت له عينان لونهما داكن وعميقتان وقسمات وجه وديعة.

قال فرمينو: فلتترك لى ما يوصلني إليك.

قال الشابّ: اتصل بورشة فايسكا لكهرباء السيارات واسأل عن ليونيل.

fb/mashro3pdf

سأل فرمينو: ليونيل من؟

ردّ الشابّ: ليونيل تورس، ولكنى قلت لسيادتك هذه الأشياء لأني كنت أريد أن أريح ضميرى لأني أعرف أنهم قد قتلوه، لا تكتب هذا سيادتك الآن، قد نتفق فيما بعد.

تمنّى له نهارًا سعيدًا وذهب. شاهده فرمينو وهو يبتعد. كان قصير القامة وجذعه طويل جدًّا على ساقيه القصيرتين. من يدرى لماذا خطر على باله شخص آخر يُدعَى تورس؟ ولكن هذا الذي لم يعرفه قط قد رآه فقط في بعض البرامج القديمة في التليفزيون. كان تورس طويلاً ونحيلاً وكان معشوق أبيه، تورس ذلك الذي كان قلب هجوم فريق بنفيكا في الستينيات.

كان أبوه يقول إنه لا يعرف أن يلعب، يكفيه أن يرفع رأسه ثم يلفّ وتذهب الكرة إلى المرمى وكأنها معجزة.

fb/mashro3pdf

(١١)

كانت الثانية عشرة والربع. فكر فرمينو أن هذا كان أفضل؛ إنه لا يريد أن يراعى الانضباط المبالغ فيه. كان متجهًا إلى شارع روا داس فلورس، وهو طريقٌ جميلٌ وراقٍ وشعبيّ في نفس الوقت، كان الطابع الشعبيّ نابعًا من النوافذ المزينة بزهور الفرنوفي، التي قد تكون هي أصل اسم الشارع، وتأتى الأناقة من محالّ المصوغات ذات الفتارين الثرية جدًّا.

نسى فرمينو أن يحمل معه الكتاب المرشد، وهو الشيء الذي أزعجه جدًّا. الصبر، سيقرؤه فيما بعد. كانت البوابة فخمة، ولكنها بالتأكيد قد شهدت أزمانًا أفضل، بوابة من خشب البلوط ومسمَّره، ربما تعود إلى القرن التاسع عشر. كانت البوابة منفتحة على مصراعيها لإدخال السيارات لأن في آخر الفناء الصغير يوجد مكان للجراج. بحث في اللافتة عن اسم المحامى مللو سيكويرا، ولكنه لم يجده. دخل الردهة بشيء من التردد، كانت توجد امرأة تجلس في غرفة البواب ذات الزجاج وكانت تشغل بلوفرًا. كانت حارسة بوّابة كما يمكن أن نجد في أوبرتو وربما في باريس أيضًا، ولكن في بعض الأحياء فقط كانت ضخمة، صدرها جميل، ويعتريها تعبير استقصائي،

fb/mashro3pdf

ترتدي بأناقة خاصّة بها وفى قدميها شبشب بأنشوطة.

قال فرمينو: أبحث عن المحامى ميللو سيكويرا.

سألت البوابة: سيادتك الصحفي؟

أكّد فرمينو.

قالت البوابة: المحامى ينتظر سيادتك، الطابق الأرضي، توجد أربعة أبواب أطرق على ما تريد منها، فكلها أبوابه.

دخل فرمينو في ممرات ذلك المبنى القديم وطرق على أول باب. ليس هناك ضوء في الردهة، فتح الباب فجأة ودخل فرمينو وأغلقه خلفه ثانية. وجد نفسه في صالة كبيرة وسقفها له قبّة ويسودها شبه ظلام. كانت الغرفة مبطّنة بالكتب ولكن الأرض كانت مكتظّة بالكتب أيضًا، أكوام من الكتب في توازن مختلّ وحزم من الجرائد والأوراق المختلفة.

حاول فرمينو أن يعوّد عينيه على شبة الظلام. وعلى الجانب الآخر من الغرفة كان يوجد رجل غائر في الكنبة. قالْ فرمينو: صباح الخير.

وتقدم نحوه. كان رجلاً ضخمًا، بل بدينًا، يشغل بسمنته نصف الكنبة، ومن أول وهلة هكذا يبدو في الستينيات من عمره، ربما بعض السنوات أكثر، أصلع، وجهه أملس، وجناته ساقطة وشفتاه غليظتان. يرجع برأسه إلى الخلف محملقًا إلى

fb/mashro3pdf

السقف. كان يشبه حقًّا تشارلز لوتون.

قال فرمينو: تشرّفنا، أنا صحفيّ لشبونة.

أشار له الرجل البدين بإشارة شاردة إلى مقعد وجلس فرمينو. وعلى الكنبة، بجوار الرجل كانت توجد آخر طبعة من جريدة أكونتسيمنو.

سأل بصوت بارد: هل سيادتك مؤلّف هذا الكلام؟

أجاب فرمينو بشيء من التردد: نعم، ولكنه ليس أسلوبي تمامًا، فأنا يجب عليّ أن أتماشى مع أسلوب جريدتي.

سأل الرجل البدين بنفس اللهجة الباردة: هل يمكنني أن أسأل سيادتك ما أسلوبك؟

أجاب فرمينو بحيرة أكثر: أحاول أن يكون لي أسلوبي، ولكن كما تعلم سيادتك فإن الأسلوب يأتي أيضًا من قراءة كتب الآخرين.

سأل الرجل البدين: أي قراءات؟ على سبيل المثال، إذا كان مسموحًا.

لم يعرف فرمينو ماذا يقول. ثم أجاب: لوكاتش، على سبيل المثال، جورجي لوكاتش.

سعل الرجل البدين، حوّل عينيه عن السقف ونظر إليه

fb/mashro3pdf

أخيرًا.

ردّ: شيء مشوّق لأن لوكاتش له أسلوبه.

قال فرمينو: بـــ... أعتقد نعم، على الأقل له طريقته.

سأل الرجل البدين بنفس اللهجة الباردة: وما عساه أن يكون؟

أجاب فرمينو بسرعة: هو أسلوب المادية الجدلية، فلنقل الأسلوب النقدي.

سعل الرجل البدين من جديد وبدا لفرمينو أن نوبات السعال تلك هي عبارة عن ضحكة مكتومة.

سأل الرجل البدين بلا مبالاة: ولماذا تُعتبر المادية الجدلية أسلوبًا في رأيك؟

شعر فرمينو أنه في مأزق وشعر أيضًا بنوع من العصبية تجاه ذلك المحامى الذي لا يعرفه والذي يطرح عليه تساؤلات حول الأسلوب وكأنه في امتحان جامعة، ولكن فلندعنا من ذلك.

حدّد: كنت أريد أن أقول إن منهجية لوكاتش تنفعني في الدراسات التي أقوم بها، هي دراسة أريد أن أكتبها.

سأل الرجل البدين: هل قرأت "التاريخ والوعى الطبقي"؟

fb/mashro3pdf

أجاب فرمينو: بالتأكيد، فهو نص أساسي.

علّق الرجل البدين: هو نص منذ عام ثلاثة وعشرين، هل تعلم سيادتك ماذا كان يحدث في أوروبا في تلك السنوات؟

قاطعه فرمينو فجأة: بالتقريب.

همهم الرجل البدين: دائرة فيينا، كارناب، أسس المنطق الشكلى، استحالة عدم وجود متناقضات داخل أي نظام، وتفاهات من هذا النوع. وفى ما يتعلق بعد هذا بأسلوب لوكاتش، بما أن سيادتك تنشغل بالأسلوب، فمن الأفضل أن لا نتحدث عنه، ما رأيك؟ فهو يبدو لي أسلوب فلاح مجَرِىّ له صداقة حميمة مع خيول بوستا.

أراد فرمينو أن يردّ بأنه لم يأتِ إلى هنا ليتحدث عن الأسلوب، ولكنه تغاضى.

أوضح: ينفعني لدراسة الواقعية البرتغالية الجديدة.

تثاءب الرجل البدين: أوه، الواقعية البرتغالية الجديدة، يلزمها حقًّا من يدرس أسلوبها.

استمرّ فرمينو في التوضيح: ليست الواقعية الجديدة الأولى، ليست واقعية الأربعينيات تلك، فأنا يهمّنى الثانية، واقعية الخمسينيات، بعد الاجتياز المتأخر لمذهب السريالية، فأنا أطلق عليها واقعية جديدة كمصطلح متعارَف عليه، ولكنها

fb/mashro3pdf

شيء آخر بالتأكيد.

همهم الرجل البدين: هذا يبدو لى شيئًا مشوقًا، أكثر تشويقًا، ولكن كوسيلة للبحث لن أختار لوكاتش بالطبع.

حملق إليه الرجل البدين ومد إليه علبة من الخشب، سأله إن كان يريد سيجارًا واعتذر فرمينو. أشعل الرجل البدين سيجارًا ضخمًا، يبدو أنه ماركة هافانا، وكان عَطِرًا جدًّا. صمت وبدأ يدخّن بهدوء. نظر فرمينو حوله بشرود وهو يلاحظ هذه الصالة الضخمة المكتظّة بالكتب، كتب في كل مكان، على الحوائط، وعلى المقاعد، وعلى الأرض، ولفافات أوراق وجرائد.

قال الرجل البدين كأنه يقرأ أفكاره: لا تظنّ أنك في مكان كافكا فسيادتك بالتأكيد قرأت كافكا أو رأيت محاكمة مع أورسون ويلز، فأنا لست أورسون ويلز، حتى لو كان هذا الغار مليئًا بالأوراق، حتى لو كنت بدينًا وأدخن سيجارًا ضخمًا، فلا تخطئ في شخصيتى السينمائية، فهم ينادونني لوتون في أوبرتو.

أجاب فرمينو: قالوا لي هذا؟

قال الرجل البدين: فلنتحدث في المفيد، فلتقُل لى ماذا تريد منى بالضبط.

اعترض فرمينو: اعتقدت أن دونا روزا قالت لك كل

fb/mashro3pdf

شيء.

همهم الرجل البدين: بعض الشيء.

قال فرمينو: حسنًا، القضية هي التي قرأتها سيادتك في جريدتى، حتى لو كانت مكتوبة بالأسلوب الذي لا يعجبك، وجريدتى تودّ أن تطرح اقتراحًا على سيادتك، إن عائلة دماشينو مونتيرو ليس لديها نقود لتدفع مصاريف محامٍ، ولكن جريدتي تتكفل بهذا الشأن، لدينا احتياجً إلى محامٍ وفكرنا في سيادتك.

تمتم الرجل البدين: لا أدرى، الموضوع هو أنني مشغول بأنجيلا، اعتقد أن سيادتك سمعت عنها، هي في أخبار المدينة.

نظر إليه فرمينو بحيرة واعترف: لا، بكل صراحة، لا.

قال الرجل البدين: العاهرة التي تم تعذيبها وماتت، القضية التي توجد في جرائد أوبرتو، أنا الذي يمثلها. خسارة أن سيادتك وأنت تعمل بالصحافة تتابع الجرائد قليلاً هكذا، أنجيلا هي عاهرة من أوبرتو اتصلوا بها لقضاء أمسية "لاهية" في الريف وأوصلها حارسها إلى هناك، حملوها إلى فيلاّ بالقرب من جيماريس حيث كان يوجد شابّ ثرى جعل حارسين يقيّدانها ومارس معها العنف الجسدي، لأنها كانت نزوة يريد أن يقضيها ولم يكن يعلم مع من يمارسها، وهكذا

fb/mashro3pdf

فعلها مع أنجيلا. عمومًا فهي عاهرة.

قال فرمينو: شيء فظيع! وسيادتك تمثلها؟

أكّد المحامى: نعم، أتعلم سيادتك لماذا؟

أجاب فرمينو: لا أدرى، فلنقل من أجل العدالة؟

همهم الرجل البدين: فلنسمِّها هكذا، حتى هذا تحديد على طريقتك. فلتعلم أن الرجل السادىّ شاب كبير ابن واحد من صغار المُلاّك في الريف أتي من القاع واغتنى مع آخر الحكومات، إنها أسوأ برجوازية نشأت في البرتغال في العشرين عامًا الأخيرة: مال، وجهل ووقاحة. إنهم ناس فظيعون، يجب أن نحترس منهم. والأسرة التي ينتمون إليها استغلت النساء مثل أنجيلا لقرون واغتصبوهن بطريقة ما، ربما ليس كما فعل هذا الولد، لنقل بطريقة أكثر رقيًّا، يمكننا أن نفترض إذن سيادتك أن هذا هو تصحيح متأخر للتاريخ خاص بى، قلب غريب لوعى الطبقة، ليس طبقًا للتقنيات الأولية للوكاتش، لنقُل على مستوى آخر، ولكن هذه شؤوني التي أفضل أن لا أشرحها لسيادتك.

أصر فرمينو: نودُّ أن ندعوك لتقوم بدور المحامى المدني، هذا إذا اتفقنا على أتعاب سيادتك.

أصدر الرجل البدين نوبات السعال تلك التي تشبه الضحكات ووضع رماد السيجار في المطفأة وهو يبدو

fb/mashro3pdf

مسرورًا، وأصدر إشارة غامضة مشيرًا إلى الغرفة.

قال: هذا المبنى ملكي. كان ملك عائلتي، وأيضًا الشارع المجاور ملكي وكان ملك عائلتي. ليس لدَىّ ورثة ويمكنني أن أتمتع ما امتدّ هذا الميراث.

سأل فرمينو: وهل هذه القضية تمتّع سيادتك؟

أجاب المحامى بهدوء: ليس هذا تمامًا ما كنت أريد أن أقول، ولكننى أريد أن تكون سيادتك أكثر تحديدًا في ما لديك من عناصر.

قال فرمينو: لدى شاهد قابلته هذا الصباح في الحديقة العامة.

سأل المحامى: وهل مصدر معلومات سيادتك مستعد ليأتي إلى القاضي؟

أجاب فرمينو: أعتقد نعم، إذا طلبت منه سيادتك هذا.

قال المحامى: حدّثنى عن المهم.

اندفع فرمينو: يبدو أنهم قد قتلوا داماشينو مونتيرو في قسم الحرس الوطني.

همهم المحامى: الحرس الوطنى؟

وأخرج نفثة من السيجار وضحك باستهزاء: إذن هى

fb/mashro3pdf

جروندنورم.

نظر إليه فرمينو بشرود وقرأ المحامى هذا الارتباك على وجهه.

أكمل المحامى: لا أستطيع أن أزعم أن سيادتك تعلم ما الجروندنورم، فأنا أدرك أننا أحيانًا: نحن رجال القانون، نتحدث بطريقة مشفَّرة.

كرّر فرمينو: فلتشرحه لى سيادتك، فأنا درست في كلية الآداب.

سأل المحامى بصوت منخفض كأنه يتحدث مع نفسه: هل تعرف سيادتك هانز كيلسن؟

ردّ فرمينو وهو يحاول أن يبحث في معارفه القانونية الضئيلة: هانز كيلسن، أعتقد أنى سمعت به، هو فيلسوف في القانون، أعتقد، ولكن سيادتك بالتأكيد تستطيع أن تحدثنى عنه أفضل.

أخرج المحامى نفسًا عميقًا لدرجة أن فرمينو شعر بصداه.

همس: بركلى، كاليفورنيا، ١٩٥٢. ربما لا تستطيع سيادتك أن تتصور ماذا يمكن أن تمثل كاليفورنيا بالنسبة إلى شاب يأتي من أرستقراطية مدينة في الريف مثل أوبرتو ومن

fb/mashro3pdf

بلد اضطهادي مثل البرتغال، أستطيع أن أقول لسيادتك في كلمة واحدة إنها كانت الحرية. ليست الحرية المبالَغ فيها التي نراها تُعالَج في بعض الأفلام الأمريكية لهذا العصر، وكانت توجد أيضًا في أمريكا في ذلك الوقت رقابة فظيعة، ولكنْ حرية حقيقية داخلية ومطلقة. تخيّل سيادتك، فأنا كان لدىّ خطيبة وكنّا نلعب الاسكواش، لعبة لم تكن معروفة مطلقًا في أوروبا في ذلك الوقت، وكنت أعيش في منزل من الخشب أمام المحيط، في جنوب بركلى وكان ملك أبناء أخوالى من أمريكا، فإن أسرتى من ناحية والدتى لهم ضلع أمريكى. وستسألْ سيادتك لماذا ذهبت إلى جامعة بركلى. لأن عائلتى كانت ثرية، وهذا شيء مؤكد، ولكن بالتأكيد لأني كنت أودّ دراسة الأسباب التي حملت الإنسان على وضع القوانين. ليست القوانين كما كان يدرسها أقراني الذين أصبحوا بعد ذلك محامين ذائعي الصيت، ولكن الأسباب التي طرحتها على سيادتك. بمعنًى قد يكون مجرَّدًا. هل أنا واضح؟ وإذا لم أكن واضحًا فلنصبر.

صمت الرجل البدين برهة وأخرج نفثة من السيجار. أدرك فرمينو أن جوا ثقيلا يسود الغرفة.

أكمل: حسنًا، كنت قد وضعت نصب عيني ذلك الرجل، بمعلوماتي كطالب من أوبرتو. هانز كلسن، المولود في براغ عام ١٨٨٣، يهودي من وسط أوروبا، كتب في العشرينيات دراسة عنوانها (المشكلة الأساسية للتحرر من قانون الدولة)،

fb/mashro3pdf

التي قرأتها وأنا طالب، لأنى درست اللغة الألمانية، أتعلم أن معلماتي كُنَّ من ألمانيا؟ فهى في الواقع لغتي الأم. وهكذا سجّلت نفسي في الكورْس الخاص به في جامعة بركلى. كان رجلاً طويلاً ونحيفاً ومرتبكًا، لنّ يظن أحد من أول وهلة أنه كان فيلسوفًا كبيرًا في القانون، بل سيعتقد أنه موظف حكومة. كان قد هرب أولاً من فيينا ثم من كولونيا بسبب النازية. درَّس في سويسرا ثم وصل بعد هذا إلى الولايات المتحدة. ثم انتقل من جديد في العام التالي إلى جامعة جنيف، وتبعته أنا إلى جنيف. كانت نظرياته على الجروندنورم قد أصبحت مسيطرة علَّى.

صمت المحامى وأطفأ السيجار وتنفس مرة أخرى وكأنه ينقصه الأكسيجين.

كرّر: جروندنورم، أتستوعب هذا المفهوم؟

قال فرمينو وهو يحاول أن يستخدم هذا القليل من اللغة الألمانية الذى كان يعرفه: قاعدة أساسية.

أكّد الرجل البدين: بالتأكيد، القاعدة الأساسية، فقط لأنها توجد على قمة الهرم بالنسبة إلى كلسن، هي قاعدة أساسية مقلوبة سواء على قمة نظريته في العدالة، والتي يسميها Stufenbaw theorie، أي نظرية البناء الهرمي الطبقي.

صمت المحامى برهة، تنهّد من جديد ولكن هذه المرة

fb/mashro3pdf

بطريقة محزنة.

أكمل: إنها عبارة تقعيدية، وتوجد على قمة الهرم لما يسمى القانون، ولكنها نتيجة تصوُّر الدارس، مجرد افتراض.

لم يستطع فرمينو أن يفهم من تعبيراته إن كان تربويًّا أو تأمليًّا أو بكل بساطة حزينًا.

قال المحامى: هو افتراض ميتافيزيقي إذا أردت، وإذا أردت هو حقًّا شيئا لكافكا. هي القاعدة التي تخدعنا جميعًا، ومنها يمكن أن تأتى سلطة الرجل الثرى الذي يرى أن من حقه أن يجلد عاهرة بالسوط، حتى وإن بدا لك شيئًا متناقضًا. إن طرق الجروندنورم لا تنتهي.

قال فرمينو وهو يغيّر الحديث: إن الشاهد الذي تحدثت معه هذا الصباح متأكد أن داماشينو قد قُتل من الحرس الوطنى.

ضحك المحامى ضحكة متعَبة ونظر إلى الساعة.

قال: أوه، إن الحرس الوطني هو مؤسسة عسكرية، إنها حقًّا تجسيد جميل للجروندنورم، هذا الشيء بدأ يجذبني، أيضًا لأن سيادتك ربما لا تعلم كم شخصًا قد قُتل أو عُذِّب في دوائر البوليس عندنا في الآونة الأخيرة.

أخبره فرمينو: أعتقد أنى أعلم هذا مثل سيادتك، إن

fb/mashro3pdf

جريدتي قد تابعت الحالات الأربع الأخيرة.

همهم المحامى: حقًّا، وتمّ تبرئة كل المسئولين، جميعهم ما زالوا بكل هدوء في الخدمة، إن هذا الشيء بدأ يجذبني حقًّا، ولكن ما رأيك إذا ذهبنا للغَداء؟ الساعة الواحدة والنصف وأشعر بجوع شديد. يوجد هنا بجوارنا مطعم أثق فيه. بالمناسبة، هل تعجبك الكرشة؟

أجاب فرمينو بلطف وذهنه مشغول: لا.

fb/mashro3pdf

(١٢)

قال المحامى وهو متجه إلى مدير المطعم: للأسف إن الكرشة لا تعجب هذا الشابّ، اعرض عليه الأطباق الخاصة للبيت يا مانويل.

وضع مدير المطعم قبضتيه على جنبيه وألقى نظرة خاطفة على فرمينو الذي خفض عينيه بحيرة.

أجاب مدير المطعم بهدوء: دون فرناندو إذا لم أستطِع أن أُرضِي ضيف سيادتك فسأتعهد أن أقدّم الغداء مجّانًا. هل هو غريب؟

أجاب المحامى: تقريبًا، ولكنه يتعود الآن على عادات هذه المدينة.

شرح مدير المطعم: يمكنني أن أقترح الأرز بالفاصوليا الحمراء وسمك أبو شوكة المقليّ الخاص بنا أو لفائف سمك البكالاه في الفرن.

نظر فرمينو بشرود إلى الرجل الضخم، كأنه يريد أن يقول إن أكلة أو أخرى سوف تروق له.

fb/mashro3pdf

قرّر المحامى: فلتعمل كلتيهما، وهكذا نتذوق. وبالنسبة إلىّ الكرشة بالطبع.

كان المطعم، الذي لم يكن مطعمًا بحق ولكن بالأحرى مخزنًا مليئًا بالبراميل، يوجد في آخر زقاق بجوار شارع روا داس فلورس، وظاهريًّا لم يكن له اسم. لاحظ فرمينو أنه كانت توجد فوق الباب لافتة من الخشب مرسومة بطريقة بسيطة مكتوب عليها "هنا حانة العين".

سأل فرمينو: في رأي سيادتك كيف يمكن أن نتصرف؟

سأل المحامى: ما اسم الشاهد.

أجاب فرمينو: يُدعَى تورس، يعمل كهربائي سيارات في ورشة فايسكا.

قال المحامى: سأمرّ عليه وآخذه بعد الظهر وأحمله معي إلى قاضى التحقيق.

اعترض فرمينو: وإذا كان تورس لا يريد أن يشهد؟

أجاب المحامى بهدوء: قلت لسيادتك إني سأحمله إلى قاضى التحقيق.

سكب بعض النبيذ الأخضر في الأكواب ورفع كوبه علامة النخب.

fb/mashro3pdf

قال: إنه نبيذ ألفارنهو غير التجاري، فهذا لا يباع في السوق، ولكنه فاتح شهيّة فقط، ثم نشرب النبيذ الأحمر.

اعتذر فرمينو: أنا لست معتادًا هكذا على النبيذ.

أجاب المحامى: فلتسرع في التعوُّد عليه.

في هذه اللحظة وصل مدير المطعم بالصينيات وتوجّه نحو المحامى، وكأن فرمينو غير موجود.

صاح بسعادة: ها هو يا سيد فرناندو، وإذا لم يعجب ضيفك فسوف أقدّم أنا الغداء، كما قلت من قبل، ولكن سيكون من الأفضل بعدُ أن يغادر السيد هذه المدينة.

كان الأرز بالفاصوليا، الغارق في المرق ذى اللون الكستنائى، له مظهر غير جذّاب. أخذ فرمينو سمكتين أبو شوكة مقليتين وقطع لنفسه شريحة من لفائف البكالاه. نظر إليه المحامى بعينيه المتسائلتين.

قال: كُلْ يا فتى، من الأفضل أن تحافظ على قوّتك، فالأمر سيكون طويلاً ومعقدًا.

سأل فرمينو: وأنا ماذا يجب أن أفعل، في هذه النقطة؟

قال المحامى: تذهب سيادتك غدًا عند تورس وتعمل معه حوارًا صحفيًّا جميلاً، أكثر طولاً وتفصيلاً بقدر الإمكان، وانشره في جريدتك.

fb/mashro3pdf

سأل فرمينو: وإذا كان تورس لا يريد؟

ردّ المحامى بهدوء: بالتأكيد يريد، ليس لديه اختيار، السبب بسيط، وتورس سوف يفهمه بسرعة، أعتقد أنه ليس غبيًّا.

جفّف المحامى بالفوطة مرق الكرشة الذي كان يتساقط على ذقنه، وأكمل بلهجة متقطعة كأنه يشرح شيئًا بدائيًّا، قال: لأن تورس رجلٌ عاصر أوقاتًا صعبة، عصر اليوم سيدلى بشهادته لدى القاضي، تحت رقابتي، أستطيع أن أؤكّد لك هذا، ولكن أتدرى؟ إن محضرًا يظل في أيدي المحققين هو قنبلة هائمة، من الأفضل دائمًا أن لا تثق به، يمكن أن يعلم أحد بهذا المحضر ولا يقبله، فلنتصور، مع كل حوادث الطريق التي تقع هذه الأيام... بالمناسبة، هل كنت تعلم أن البرتغال تشغل المركز الأول في أوروبا في إحصاءات حوادث الطريق؟ يبدو أن البرتغاليين يقودون بلا مسؤولية.

نظر فرمينو بالحيرة التي كان المحامى يستمر في إثارتها لديه.

سأل: وفيمَ ينفعه الحوار الصحفي في جريدتي؟

ابتلع المحامى بشراهة قطعة كرشة، على الرغم من أنها كانت مقطّعة إلى شرائح صغيرة كان يأكلها محاولاً بلا جدوى أن يلفّها بالشوكة.

fb/mashro3pdf

تنهّد: يا بني، إنك تدهشني، فأنت تكتب في جريدة ذات انتشار كبير ويبدو أنك لا تعرف ماذا يعنى الرأي العامّ، هذا جدير باللوم، حاول أن تسمعني لحظة. إذا كان تورس قد أدلى بشهادته إلى سلطات التحقيق يؤكّد كل شيء في جريدتك، فإنه يستطيع أن يظل مطمئنًّا لأن الرأي العامّ كله سيكون معه، وأي سائق شارد على سبيل المثال سيفكر مرة ومرتين قبل أن يصدم بسيارته شخصًا تقع عليه عيون الرأي العامّ كله، أتفهم الفكرة؟

ردّ فرمينو: أفهم الفكرة.

أكمل المحامى: ثم إن هذا يتعلق بسيادتك من قريب كصحفي، هل تعلم ماذا كان يقول جوهاندو؟

هزّ فرمينو رأسه بالنفي. شرب المحامى رشفة خمر وجفف شفتيه الغليظتين.

قال: بما أن الشيء الجوهري للأدب هو معرفة البشر، وبما أنه ليس في العالم مكان حيث يمكن دراسته أفضل سوى قاعات المحاكم، فليس من المستحَبّ دائمًا أن يكون بين المحلّفين طبقًا للقانون كاتب. وجود سيادتك سيكون دعوة إلى الجميع لكي يفكّروا أكثر. انتهت الملحوظة.

صمت المحامى برهة وأخذ رشفة خمر أخرى:

– جوهاندو، بل لن تكون حاضرًا حتى بين المحققين

fb/mashro3pdf

المُدرَجين في التحقيق، لأن القانون لا يسمح لك بهذا، وأيضًا حقيقي أنه طبقًا للمعنى الفعلي للكلمة، فأنت لست كاتبًا، ولكن يمكننا أن نضغط على أنفسنا ونعتبرك هكذا، بما أنك تكتب في جريدة يمكننا أن نقول إن سيادتك ستكون محلّفًا بالقوّة. وهذا دورك، محلّف بالقوة، أتفهم الفكرة؟

أجاب فرمينو: أعتقد نعم.

ثم أراد أن يكون أمينًا وسأل: ولكن من يكون جوهاندو هذا؟ لم أسمع اسمه قط.

أجاب المحامى: مارسيل جوهاندو، عالم لاهوت فرنسي محفّز، كان يروق له أن يثير الفضائح، كان أيضًا ناشرًا للوضاعة، إذا كنت أستطيع أن أعبّر عن نفسي هكذا، وهو له نوع من الانحراف الميتافيزيقي، بل كل ما كان يعتقده كان ميتافيزيقيًّا. أتعلم؟ كان يكتب عندما كان السرياليون يمدحون الثورة وبعد أن شرع جيدى الجريمة غير المبررة. ولكنه بالطبع لا يتمتع بعظمة جيدى، أساسًا كان يضطرب حتى وإن كان قد أصاب في بعض عباراته عن العدالة.

قال فرمينو: يجب علينا بالطبع أيضًا أن نحدّد القضية الأساسية لأن جريدتي تحمل على عاتقها أتعاب سيادتك.

نظر إليه المحامى بعينيه المتسائلتين.

سأل: ماذا تعنى؟

fb/mashro3pdf

قال فرمينو: بمعنى أن سيادتك بالضرورة يجب أن تُكافأ.

كرّر المحامى: ماذا تعنى؟ ماذا يعنى هذا بالمعنى الرقمي؟

شعر فرمينو بارتباك طفيف. أجاب: لا أعلم، مديري سيقول هذا لسيادتك.

قال المحامى بطريقة غير منطقية: يوجد منزلٌ في شارع روا دو فيرَّاتس حيث قضيت طفولتي، بالضبط فوق روا داس فلورس، إنه قصر صغير من القرن الثامن عشر، وكانت تعيش فيه جدتي الماركيزة.

تنهد بحنين، ثم سأل: وسيادتك أين أمضيت طفولتك؟ في أي نوع من المنازل؟

أجاب فرمينو: على ساحل كاسكاس، كان أبى في حرس السواحل ولديه حقّ الانتفاع بمنزل على البحر، أنا وأخواتي في الواقع قد أمضينا فيه طفولتنا.

قال المحامى: أوه، نعم، ساحل كاسكاس، ضوء منتصف النهار ناصع البياض الذي يُصبغ باللون الوردي عند الغروب، وزرقة المحيط، وغابات جوينهو. أنا على العكس لدىّ ذكريات قصر كئيب مع جدة باردة الأعصاب تشرب الشاي وتستخدم كل يوم شريطًا مختلفا حول عنقها المجعد، ولكنه دائمًا من

fb/mashro3pdf

الحرير الأسود، أحياناً بسيط، ومرات أخرى بتطريز خفيف على حوافّه. لم تلمسني قط، وأحياناً كانت تلمس يدي بالكاد بيدها الباردة وتقول لي إن الشيء الوحيد الذي يجب أن يتعلمه طفل من أسرتها هو احترام الأجداد. كنت أشاهد ما كانت تسمّيه الأجداد. كانوا لوحات زيتية قديمة لرجال متعجرفين مع علامة احتقار على الوجه وشفاههم غليظة مثل شفتيّ، لقد ورّثوها لي.

تذوق قضمة من البكالاه ثم قال: اهدأ، إن هذه الأكلة رائعة، فلتقل لي ما ر أي سيادتك فيها؟

أجاب فرمينو: تعجبني، ولكن سيادتك كنت تحكي لي عن طفولتك.

أكمل المحامي: حسناً، ذلك المنزل خاوٍ، بكل ذكريات تلك السيدة الماركيزة التي كانت جدتي بطريقتها: لوحاتها، موبيلياتها، أغطيتها التي اشترتها من كاستيلو بيانكو، وأشجار عائلتها. لنقُلْ إنها طفولتي المغلق عليها هناك كأنها في علبة جواهر. كنت أذهب هناك منذ بضع سنوات للبحث في أرشيف العائلة، ولكن لا أدري إن كنت سيادتك قد شاهدت كيف يكون شارع روا دو فيراتس، يلزم التلفريك للوصول إليها، لا أستطيع الوصول إليها بضخامتي، يجب أن أستدعي تاكسيًا للسير خمسمائة متر، ولهذا مضت سبع سنوات دون أن أخطو إلى هناك. وهكذا قررت أن أبيعه. عهدت به إلى شركة،

fb/mashro3pdf

حسنًا، إن الشركات تلتهم الطفولة. إنها الطريقة الأكثر عقمًا للتخلص منها، ولن تستطيع أن تتخيل كم برجوازيًّا ثريًّا، من هؤلاء الذين كوّنوا الأموال في السنوات الأخيرة بمساعدات المجتمع الأوروبي، كان يريد ذلك المنزل. أتعلم؟ إنه مكان – طبقًا لعقليتهم– يمكن أن يعطيهم مكانة اجتماعية يبحثون عنها بلا جدوى، إنّ عمل فيلاّ خاصة حديثة بحمام السباحة في المنطقة الراقية شيء في متناول يدهم، ولكن قصر من القرن الثامن عشر ومكانة أعلى... أتفهم الفكرة؟

أقرّ فرمينو: أفهم الفكرة.

قال المحامى: وهكذا قررت أن أبيعه. الراغب الأكثر ولعًا في الشراء يأتي من الريف. إنه ممثّل خاصّ للمجتمع الذي نعيش فيه اليوم. كان والده من صغار مربِّى الماشية. لقد بدأ بنشاط صغير في عمل الأحذية أيضًا تحت حكم سالتزار. في الواقع كان يصنع بالأخص أحذية مكسوّة بقماش مغطّى بالبلاستيك ومعه اثنان من العمال. ثم جاءت الثورة في عام خمسة وستين وانضمّ هو إلى الأفكار التعاونية، لدرجة أنه قام بأجراء حوار صحفي تقريبًا ثوريّ في جريدة يومية ثائرة. ثم جاءت الليبرالية الجديدة الجامحة بعد أوهام الثورة وانضمّ إليها كما ينبغي، عمومًا، هو واحد قد استطاع أن يوجّه نفسه جيدًا. يمتلك أربع سيارات مرسيدس وملعب جولف في ألجارفى، وأعتقد أن لديه أسهمًا في شركات الإنشاء في ألنتيجيو، ومَن

fb/mashro3pdf

يدرى إن لم يكن في شبة جزيرة ترويا أيضًا؟ هو شخص يتفق جيدًا مع كل أحزاب المجال الدستوري من الشيوعيين لليمين، وبالطبع مصنع الأحذية التابع له يزدهر، يصدِّر خصوصًا إلى الولايات المتحدة. ما رأي سيادتك في هذا؟ هل يكون تصرفًا جيدًا أن أبيعه؟

سأل فرمينو: المنزل؟

أجاب المحامى: بالتأكيد، المنزل. قد أبيعه له. جاءت زوجته منذ بضعة أيام لتتحدث معي وأعتقد أنها المثقفة الوحيدة في العائلة. سأوفر عليك وصف تلك السيدة رائعة الجمال، ولكنى دفعت الثمن، لأني قلت إني أبيع المنزل والأثاث القديم واللوحات النبيلة، وسألتها: "سيدتى الراقية، ماذا ستفعل بالمنزل أسرة مثل أسرتك دون الأثاث القديم واللوحات النبيلة؟". وسيادتك ما رأيك أيها الشابّ؟ هل تصرفت جيدًا؟

أجاب فرمينو: في رأيي، لقد تصرفت جيدًا جدًّا، وبما أنك حريص على رأيي أستطيع أن أقول لك إنك تصرفت جيدًا جدًّا.

اختتم المحامى: إذن، بلّغ مديرك أن الأتعاب الخاصة بداماشينو مونتيرو تمّ سدادها تمامًا بسعر لوحتين من القرن الثامن عشر من منزلي في شارع روا دو فيراتس، وعليك أن لا تطرح علىّ اقتراحات من أجل أتعابي من فضلك.

fb/mashro3pdf

لم يردّ فرمينو واستمر في تناول الطعام. كان قد تذوق بخجل الأرز بالفاصوليا الحمراء ووجده لذيذًا ولهذا أخذ منه كمية أخرى. أراد أن يقول شيئًا ولم يعرف كيف يقوله. وفى النهاية حاول أن يعبر عنه.

قال وهو يتلعثم: جريدتي... حسنًا، أودّ أن أقول جريدتي سيادتك تعلم جيدًا ما أسلوبها، الأسلوب الذى يجب أن نجذب به قراءنا، إذن هى جريدة شعبية، قد تكون جريئة، ولكنها جريدة شعبية، تعطى ما تريد أن تعطيه. المهم، لكى تبيع أعدادًا أكثر... لا أدرى إذا كنت واضحًا.

كان المحامى مشغولاً بالمشروبات ولم يقُل شيئًا. والآن هو مستغرَق في أكل البكالاه.

قال فرمينو مستعينا بأسلوب المحامى: لا أدرى إن كنت تفهم الفكرة؟

أجاب المحامى: لا أفهم الفكرة.

أكمل فرمينو: عمومًا، أريد أن أقول إن جريدتي هي الجريدة التي تعلمها سيادتك، حسنًا، وسيادتك... سيادتك محامٍ مهمّ، ولك اسمك، عمومًا أريد أن أقول إن لديك سمعتك التي تدافع عنها... لا أدرى إن كنت واضحًا.

أجاب المحامى: سيادتك تستمرّ في خداعي، تحاول بكل الطرق أن تكون أقلّ ذكاءً. يجب أن لا تكون أقلّ ذكاء مما

fb/mashro3pdf

نحن فيه. ماذا قلت عنى؟

سأل فرمينو باندفاع: ولكن ماذا تعتقد سيادتك؟

لم يكن ليستطيع أن يتحدث لأنه قال هذا السؤال الساذج في تلك اللحظة، وبدا له بالضبط عندما كان ينطقه أحد هذه الأسئلة التي توجَّه في المدرسة إلى رفيقه المُقعَد والذى يخجل من يلقيه ومن يتلقاه. رفع المحامى رأسه من على الطبق ونظر إليه بعينيه المتسائلتين.

سأل بانزعاج واضح: سيادتك توجّه إلىّ سؤالاً شخصيًّا؟

أجاب فرمينو بشجاعة: فلتقل إنه سؤال شخصي.

أصرّ المحامى: ولماذا تطرح علّى هذا السؤال؟

صاح فرمينو لأن سيادتك لا تعتقد في شيء، لدىّ انطباع أن سيادتك لا تعتقد في شيء.

ضحك المحامى، وبدا لفرمينو إنه غير مرتاح.

أجاب: ربما أعتقد في شيء يمكن أن يبدو لسيادتك على سبيل المثال خاليًا من المعنى.

ألحّ فرمينو: فلتشرح لي على سبيل المثال شيئًا يمكن أن يكون مقنعًا.

لقد وضع نفسه في هذا المأزق ويريد أن يتحمل دوره.

fb/mashro3pdf

أجاب المحامى: قصيدة على سبيل المثال، أبيات قليلة، يمكن أن تبدو شيئًا تافهًا، ولكن يمكن أن تكون شيئًا جوهريًّا، مثلاً: "كل ما عرفته، ستكتبه لي لكي أتذكره، بالخطابات، وهكذا أيضًا أنا، سأقول لك كل الماضي".

سكت المحامى. كان قد أبعد الطبق ويديه تعتصران المنشفة.

أكمل: هولدرلن، قصيدة عنوانها "إذا كان على بعد"، هي واحدة من أحدث القصائد، نقول إنه يمكن أن يكونوا أشخاصًا ينتظرون خطابات من الماضي، هل يبدو لك شيئًا مقبولاً؟ يمكن أن تعتقد فيه؟

أجاب فرمينو: ربما، يمكن أن يكون مقبولاً، حتى لو كنت أودّ أن أفهم أفضل.

همهم المحامى: شيء بسيط، خطابات من الماضي تشرح لنا فترة من حياتنا لم نفهمها قط، وتعطينا أي توضيح يجعلنا نستوعب معنى سنوات عديدة مضت وعما فاتنا في ذلك الوقت، سيادتك شاب، تنتظر خطابات من المستقبل، ولكن افترض إنه يوجد أشخاص ينتظرون خطابات من الماضي، وقد أكون واحدًا من هؤلاء، وأدفع نفسي لأن أتخيل أنها ستصلني يومًا ما.

توقّف، أشعل واحدًا من سيجاره وسأل: هل تدرى كيف

fb/mashro3pdf

أتصور أن تصلني؟ اجتهد.

قال فرمينو: ليست لدى أدنى فكرة.

قال المحامى: حسنًا، في طرد صغير مربوط بأنشوطة وردية اللون، تمامًا هكذا، ومعطّر برائحة البنفسج، كما هو في أسوأ الروايات الشعبية. وأنا سأقرب أنفى الفظيع في ذلك اليوم من الطرد الصغير، أفكّ الأنشوطة الوردية، سأفتح الخطابات وسأفهم بوضوح شديد قصة لم أفهمها من قبل، قصة فريدة وجوهرية، أكرّر، فريدة وجوهرية، شيء يمكن أن يحدث مرة واحدة في الحياة، يسمح بها الآلهة أن تحدث لنا مرة واحدة في حياتنا، والتي لم نعطها الاهتمام اللازم، لأننا كنا بالضبط أغبياء ومتعجرفين.

صمت مرة ثانية، هذه المرة أطول. كان فرمينو ينظر إليه في صمت، يلاحظ وجناته السمينة والمتدلية، الشفتين الغليظتين والمقززتين تقريبًا، وهذا التعبير الشارد في الذكريات.

أكمل المحامى بصوت منخفض: لماذا؟ ماذا ستفعل بالحب القديم؟ بـــ... أنا أسأل نفسي أيضًا عن هذا، ماذا ستفعل بالحب القديم؟ إنه بيت شعر من قصيدة للويسكولى، التي تستمر هكذا: هل تلتقطونه مثل الظلال الواهية؟ لقد مضى، تلك الأوهام الجامدة، قلب أمام قلب، جزء منكم أنتم. بالتأكيد هي

fb/mashro3pdf

موجَّهه إلى فلوبير. يجب أن نحدد أن كولى كانت تكتب قصائد مؤلمة، مسكينة حتى إذا كانت تظن نفسها شاعرة كبيرة وتريد أن تصعد السلّم إلى الصالونات الأدبية في باريس، هى أبيات متوسطة ليس هناك ما تقوله. ولكن يبدو لي أن هذه الأبيات شوكة في الظهر لأنه ماذا نفعل بالحب الماضى؟ هل نضعه في درج مع الجوارب المثقوبة؟

نظر إلى فرمينو كأنه ينتظر تأييدًا منه، لكن فرمينو لم ينطق.

أكمل المحامى: أتعلم ما أقول لك؟ إنه إذا لم يفهمها فلوبير فهو غبي، في هذه الحالة يجب أن نعطى الحق لسارتر المتغطرس، ولكن ربما فهم فلوبير، ماذا تعتقد سيادتك؟ هل فهم فلوبير أم لا؟

أجاب فرمينو: ربما فهم، الآن لا أستطيع أن أؤكد لسيادتك في التوّ، ربما فهم، ولكنى لست قادرًا على أن أؤكّد هذا.

قال المحامى: لا تؤاخذني أيها الشابّ، أنت تدّعى أنك تدرس الأدب، وتريد أيضًا أن تكتب بحثًا في الأدب، وتعترف لي إنك لا تعرف أن تعبّر عن هذا الشيء الجوهري، إذا كان فلوبير قد فهم رسالة لويس كولى الغامضة أم لا؟

فرمينو وهو يدافع عن نفسه: ولكنني أدرس الأدب

fb/mashro3pdf

البرتغالي في الخمسينيات، ماذا أدخل فلوبير في الأدب البرتغالي في الخمسينيات؟

أستأنف المحامى: ظاهريًّا لا شيء، ولكن ظاهريًّا فقط، لأن كل شيء يتداخل في الأدب. انظر يا بني، إنه مثل خيوط العنكبوت، أتعرف خيوط العنكبوت؟ إذن فكر في كل تلك التداخلات المعقدة التي ينسجها العنكبوت، فكلها طرق تؤدّى إلى المركز، لا تبدو هكذا عندما تنظر إليها من الضواحي، ولكنها جميعًا تؤدّى إلى المركز. أذكر لك مثالاً: كيف تستطيع سيادتك أن تفهم "التربية العاطفية"، هذه الرواية التشاؤمية بطريقة فظيعة والرجعية بطريقة فظيعة طبقًا لقواعد لوكاتش، إذ لم تعرف الروايات ذات الذوق الرديء في تلك الفترة ذات الذوق السيئ وهى فترة الإمبراطورية الثانية؟ ومع كل هذا، وأنت تقوم بعمليات الربط اللازمة، ماذا لو علمت بإحباط فلوبير؟ أتعلم أنه عندما أغلق فلوبير على نفسه في منزله في كراسيت يتأمل العالم من خلف النافذة، كان محبطًا بطريقة فظيعة؟ وكل هذا حتى لو لم يبدُ لك فإنه يشكّل خيوط عنكبوت، نظامًا مكونًا من نقاط التقاء خفيّة، من روابط فلكية، ومن توافقات لا يمكن التقاطها. إذا كنت تريد دراسة الأدب عليك أن تتعلم هذا على الأقلّ، أن تدرس التوافقات.

نظر إليه فرمينو وحاول أن يردّ. كان يشعر من جديد بطريقة غريبة جدًّا بإحساس الذنب الذي سبّبه له صاحب

fb/mashro3pdf

المطعم عندما كان يعرض عليه قائمة الطعام.

أجاب: أحاول بكل تواضع أن أشغل نفسي بالأدب البرتغالي في الخمسينيات، دون أن أتعالى.

أجاب المحامى: اتفقنا، لا يجب أن لا تغترّ، ولكن يجب أن تنغمس في هذه الفترة، ولكي تفعل ذلك ربما وجب أن تعرف نشرات الأرصاد الجوية التي كانت الجرائد البرتغالية تنشرها في تلك السنوات، كما يمكن أن تعلّمك رواية رائعة لكاتب لدينا يستطيع أن يصف رواية البوليس السياسي مستخدمًا نشرات الأرصاد الجوية بالجرائد، هل تستوعب؟

لم يردّ فرمينو وقام بعمل إشارة مبهمة برأسه.

قال المحامى: حسنًا، سأترك لسيادتك هذا كفكرة لبحث ممكن، تَذكّر أن النشرات الجوية يمكن أن تفيد أيضًا بشرط أن تؤخذ كمركز، كدليل، دون الخوض في علم اجتماع الأدب، هل أنا واضح؟

قال فرمينو: أعتقد نعم.

كرّر المحامى باشمئزاز: علم اجتماع الأدب، نحن نعيش زمنًا بربريًّا. أومأ بالنهوض، ونهض فرمينو بطريقة سريعة جدًّا قبله.

صاح المحامى على صاحب المطعم: كل شيء على

fb/mashro3pdf

حسابي يا أمانويل. إن ضيفنا قد استحسن الغداء.

اقتربا من باب الخروج. توقف المحامى عند المدخل.

قال: سأبلغك هذا المساء بعض الشيء عن وضع تورس. سأرسل لك رسالة إلى بنسيون دونا روزا. ولكن مهمّ أن تُجرِى معه لقاءً صحفيًّا غدًا بالتحديد وأن تصدر جريدتك عددًا استثنائيًّا آخر، بما أنكم تصدرون أعدادًا استثنائية كثيرة عن هذا الرأس المفقود، اتفقنا؟

أجاب فرمينو: اتفقنا، اعتمد علىّ.

خرجا في ضوء العصر في مدينة أوبرتو. الشوارع مزدحمة الجو حار رطب مع ضباب خفيف يخيم على المدينة. مرر المحامى المنديل على جبهته ووجه له إشارة تحية سريعة.

همهم لقد أكلت كثيرًا، أكلت كثيرًا كعادتي. بالمناسبة، أتعلم كيف مات هولدرلين؟

نظر إليه فرمينو دون أن يستطيع الإجابة، في الوقت نفسه لم يكن يستطيع أن يتذكر كيف مات هولدرلين.

قال المحامى: لقد مات مجنونًا، إنه شيء يؤخذ في الاعتبار.

ابتعد وهو يترنح بخطى مهتزة على جسده الضخم.

fb/mashro3pdf

(١٣)

"ليونيل تورس، ستة وعشرون عامًا، ليس له سوابق، متزوج، لديه ابن عمره تسعة أشهر مولود في براغ، قاطن في أوبرتو، وهو صديق لداماشينو مونتيرو. كانا معًا ليلة جريمة القتل، ولقد أدلى بشهادته أمام قضاة التحقيق. قبل أن يدلى بحديث صحفي فقط لجريدتنا. تفتح أقواله فصلاً جديدًا في قصة هذه القضية الغامضة وتلقى بظلال تثير القلق حول أفعال البوليس لدينا من مراسلنا الخاص في أوبرتو.

- كيف عرفت داماشينو مونتيرو؟

- عرفته عندما انتقلت عائلتي إلى أوبرتو. كان عمري اثني عشر عامًا، في ذلك الوقت كان أبواه يسكنان في ديبيرا، ولكن ليس في المنزل الذي يسكنانه الآن، كان والده يعمل صانع سلال ويكسب جيدًا.

- نعلم أنكما في السنوات الأخيرة كنتما قريبَين جدًّا.

- كان في ضائقة وكان يأتي دائمًا على الغداء والعشاء في منزلي، كان معه قليل من النقود.

- ومع ذلك كان قد وجد عملاً قبلها بوقت وجيز.

fb/mashro3pdf

– كان قد تمّ تعيينه ساعيًا في Stones of Portugal، شركة تصدير واستيراد في جايا، تعمل خصّيصًا في الحاويات.

– وما الشيء غير العادي، فلنقل هكذا، الذي اكتشفه السيد مونتيرو في عمله؟

– حسنًا، داخل الحاويات حيث توجد بضاعة إلكترونية كانت تصل أيضًا طرود من المخدرات ملفوفة بالبلاستيك ومحفوظة بالأستيارين.

– أتعتقد إذا أن داماشينو مونتيرو كان يعرف كثيرًا؟

– لا أعتقد، أنا متأكد؟

– هل تستطيع أن توضح أفضل؟

– لقد أدرك داماشينو أن الأساس كان هو الحارس الليلي، ذلك العجوز الذى تُوُفّى منذ بضعة أيام. الشركة بالطبع لم تكن تعلم بهذه التجارة، ولكن الحارس كان يشكّل عصابة مع مهرّبين من هونج كونج، من حيث تأتى الحاويات. كان يتسلم الطرود ويروّجها في أوبرتو.

– بأي مخدرات يتعلق؟

– هيروين نقى.

– وأين كان يتوجه؟

fb/mashro3pdf

- كان الجريللو فردى يمر ليأخذ الطرود.

- معذرة، مَن الجريللو فردى؟

- هو ضابط صف في مقر الحرس الوطني.

- واسمه؟

- تيتانيو سيلفا، ويُدعَى جريللو فردى.

- لماذا يسمّونه جريللو فردى؟

- لأنه عندما يغضب يهمهم ويقفز مثل الصرصور وله لون بشرة مائل إلى الاخضرار.

- وماذا حدث بعد؟

- كان داماشينو قد عمل قبلها ببضعة أشهر كهربائي سيارات في بوربوليتا نوكتورنا، مكان يملكه جريللو فردى، ولكنه أظهر أنه ملك زوجة أخيه. وهناك كانت تروَّج كل مخدرات أوبرتو. يأتي التجار هناك ليشتروها ثم يبيعونها للخيول.

- الخيول؟

- مروّجي القطّاعى، الذين يبذلون قصارى جهدهم في الشوارع مع المدمنين.

- وماذا علم السيد مونتيرو؟

fb/mashro3pdf

- لا شيء، فهم أن الجريللو فردى يتلقى الهيروين من هونج كونج عبر شركة تصدير واستيراد. ربما تورط فيها، مَن يدرى؟ الموضوع هو أنه بعد قليل عمل ساعيًا في Stones of Portugal التي كانت المخدرات تصل في حاوياتها من آسيا، وفهم أن الأساس كان حارس الليل.

- الذي مات على ما يبدو بسبب سكتة قلبية.

- نعم، حدثت للعجوز نوبات من السكتة من حين إلى آخر ومات. كانت حقًا فرصة مناسبة: مدير الشركة بالخارج والسكرتيرة في إجازة والمحاسب رجل غبي.

- ثم؟

- ثم في تلك الليلة، أي الليلة التي حدثت فيها السكتة القلبية للحارس، جاء داماشينو إلى منزلي وقال لي إنه جاءت اللحظة الحاسمة، أي أنها ستكون خبطة العمر، التي نستطيع بعدها أن نذهب إلى ريو دى جانيرو.

- ماذا يعنى؟

- بمعنى أن الحاويات كانت قد وصلت لتوها من هونج كونج محمَّلة بالبضائع، كما كان يعلم داماشينو مونتيرو، وبما أن الجريللو فردى وعصابته سيأتون اليوم التالي، وهو اليوم المحدد مع حارس الليل، فسنخدعه نحن ونأخذ كل البضاعة لأنفسنا.

fb/mashro3pdf

- وكيف كان ردّ فعل سيادتك؟

- قلت له إنه مجنونً، إننا لو سرقنا الجريللو فردى سيتخلص منّا. ثم في أي داهية كنا سنبيع تلك البضاعة؟!

- وعلى ماذا اعترض مونتيرو؟

- قال إنه هو الذي سيهتمّ بالبيع وإنه يعرف الكثير في ألجارفى حيث يستطيعون أن يرسلوا البضاعة إلى أسبانيا وفرنسا، وإنها ملايين لا حصر لها.

- ثم؟

- قلت له إني لن أذهب معه في تلك الليلة، وإن لدىّ زوجة وطفلاً صغيرًا ويكفيني مرتب الورشة، فقال لى إنه في الحضيض، إن والده يتناول الأنتابوس ويتقيأ طوال الليل وإنه لم يعد يتحمل هذه الحياة ويريد أن يذهب ليعيش في كوبا كابانا، وبما أن لدىّ سيارة وهو يسير على قدميه كان علىّ أن أصطحبه إلى هناك.

- وهكذا رافقته.

- نعم، رافقته، ولأقول الحقيقة دخلت معه إلى الفناء، فعلت ذلك بكامل إرادتي دون أن يجبرني بأي طريقة كانت، لأنه كان يؤسفنى أن أظل خارج البوابة بينما يذهب هو ليقوم بهذا العمل الخطير بمفرده.

fb/mashro3pdf

– معذرة، هذا الكلام يبدو كرمًا كبيرًا من جانب سيادتك. ولكن ألم تكن تفكر في تلك اللحظة في الملايين التي كان يمكن أن تأتيك من هذه السرقة؟

– ربما نعم، أنا صريح. أتعلم؟ فأنا أشتغل طوال اليوم كهربائي سيارات وأربح تفاهات، منزلي عبارة عن مخزن حاولَت زوجتي أن تجمّله بستائر بها ورود، ولكنه في الشتاء يصبح رطبًا جدًّا والحوائط تُرشّح، بيئة غير صحّية. ولدىّ طفل عمره شهور قليلة.

– وكيف سارت الأمور مع صديقك مونتيرو؟

– أضاء نور المبنى كأنه صاحب المكان وطلب منى أن لا أتحرك، وقال إنه سيتصرف في كل شيء. وهكذا لم أتحرك ولم أشارك في السرقة. بحث هو في الأدراج عن الرقم السري لفتح الحاويات وخرج إلى الفناء. جلست أنا على المكتب، كنت أنتظره ولا أدرى ماذا أفعل، وفكرت هكذا أن أجري مكالمة هاتفية مجاناً إلى جلاسجو.

– معذرة، سيادتك قمت بعمل مكالمات هاتفية إلى جلاسجو من مكاتب "ستونس أوف بورتوجال"؟

– نعم، لأن لدى شقيقة هاجرت إلى جلاسجو ولا أتصل بها منذ خمس سنوات. أتعلم؟ إن الاتصال بجلاسجو يكلف كثيرًا، وشقيقتي لديها طفلة منغولية تسبب لها مشكلات كثيرة.

fb/mashro3pdf

- استمر، من فضلك.

- بينما كنت أتصل سمعت صوت سيارة، فأغلقت الهاتف هكذا وهُرعت إلى المخزن ذي الباب الأكورديون حيث توجد المكنسة الكهربائية. دخل داماشينو في تلك اللحظة من باب الفناء، ودخل من الباب الرئيسى جرللو فْردى وعصابته.

- جرللو فْردى وعصابته؟ ماذا تعنى بكلمة عصابته؟

- كانا اثنين من عساكر الحرس الوطني يرافقانه باستمرار.

- هل تعرفت عليهما؟

- نعم، واحد يُدعَى كوستا، له بطن كبير جدًّا لأنه يعانى من التليّف الكبدي. والآخر لا أعرفه. كان شابًّا، ربما مجند مستجد.

- وماذا حدث؟

- كان في يد داماشينو أربع لفات من المخدرات ملفوفة بالبلاستيك، اكتشف أنى اختفيت وواجه الجرللو فردى.

- وماذا فعل الشرطي؟

- بدأ الشرطي يقفز على ساق واحدة وعلى الثانية كمن يأتيه شدّ عضلي، ثم بدأ يتمتم، لأنه -كما قلت لسيادتك- يتمتم

fb/mashro3pdf

عندما يتعصب. لا يستطيع أن يقول كلمة يفهمها أحد.

- ثم؟

- بدأ يتمتم وقال: "يا ابن العاهرة، هذه البضاعة بضاعتي". كنت أنا أراقبه من ثقب المخزن. أخذ الجريللو ڤردى لفات البضاعة وقام بعمل شيء غير مفهوم.

- ماذا فعل؟

- فتح واحدة منها بسكّين له جراب، أخرج ما فيها ونثر المحتوى على رأس داماشينو. قال: يا ابن العاهرة، سأغمرك الآن. أتفهم؟ تلك كانت ملايين، تمامًا كانت ملايين.

- ثم؟

- كان داماشينو مغطّى بالبودرة، كأنها قد أمطرت فوقه، والجريللو كان عصبيًّا جدًّا، يقفز من جانب إلى آخر مثل الشيطان، أرى أنه قد تمّ.

- ماذا تقصد؟

- إنه قد أنهى كل شيء. الجريللو سيبيع البضاعة، وسيأخذها من حين إلى آخر، ولديه بضاعة سيئة، كما يوجد أناس لديهم خمر سيئ، وكان يريد أن يتخلص من داماشينو هناك في نفس المكان.

fb/mashro3pdf

- أوضِحْ بشكل أفضل: كيف كان يريد أن يتخلص من داماشينو مونتيرو.

- كان الجريللو قد أخرج المسدس. كان عصبيًّا جدًّا، كان يوجّهه إلى صدغ داماشينو ثم يوجّهه إلى بطنه ويصيح: سأقتلك يا ابن العاهرة.

- وهل أطلق؟

- أطلق، ولكن الطلقة ضاعت في الهواء واستقرت في السقف، لو ذهبت سيادتك إلى مكاتب Stones of Portugal ستجد بالتأكيد ثقبًا في السقف. لم يقتله لأن رفاقه قد تدخّلوا وحوّلوا مسار الطلقة، ووضع هو المسدس في الجراب الجلدي.

- ثم ماذا حدث؟

- اقتنع الجرللو أنه لن يستطيع قتله في المكان، ولكنه لم يهدأ بالتأكيد. ضرب داماشينو بقدمه في خصيتيه جعله ينثني جزأين ثم ناوله بركبته في وجهه، تمامًا كما يحدث في الأفلام، وأخذ يضربه بالركلات. ثم قال لعصابته أن يحملوه في السيارة وأنهم سيتحاسبون في قسم البوليس.

- ولفّات المخدرات.

- دسّوها في سترتهم، ووضعوا داماشينو في السيارة وساروا نحو أوبرتو. كانوا جميعًا غاضبين مثل الحيوانات التي

fb/mashro3pdf

اشتمت رائحة الدم.

- ألا تريد أن تقول لنا شيئًا آخر؟

- فكّر سيادتك في الباقي.

- وُجد جسد داماشينو في الصباح التالي بواسطة غجري في أرض مليئة بالأحراش، كان مقطوع الرأس كما نعلم. الآن علىّ أن أطرح عليك سؤالاً: ماذا تستنتج من هذا؟

- هذا هو السؤال الذي يطرحه مراسلكم الخاص على كل القراء.

fb/mashro3pdf

(١٤)

كان بنسيون دونا روزا هادئًا في ذلك الوقت، النزلاء القليلون لم يعودوا بعد، التليفزيون صوته منخفض، في الصالون الصغير كان يذيع تقريرًا.

همهم المحامى: فلنرَ إذا كانت نشرة الأخبار تتحدث عنه. إنه شيء هام جدا أن يظهر في نشرة الأخبار.

كان يتدفق بجسمه الضخم من فوق إحدى الكنبات الصغيرة المزركشة في صالة بنسيون دونا روزا، يشرب ماء ويجفّف جبينه بالمنديل. كان قد وصل لتوه وجلس في صمت في الصالون الصغير. حملت إليه دونا روزا دون أن تسأله زجاجة مياه معدنية غازية.

أضاف: جئت من مكتب النائب العام، تمّت هناك أول التحقيقات.

فرمينو لم يقل شيئًا. دونا روزا تتحرك على أطراف أصابعها، كانت تضع هنا وهناك المفارش الصغيرة المزركشة في مكانها على الأرائك.

ألحّ المحامى: أتعتقد سيادتك أن نشرة الأخبار ستتحدث

fb/mashro3pdf

عنه؟

أجاب فرمينو: نعم، في رأيي. ولكن فلنرَ كيف تحدّثت عنه نشرة الأخبار في المقدمة.

كان خبرًا تقريريًّا يعتمد أساسًا على الصحافة وخصوصًا على اللقاء الصحفي الذي أدلى به تورس إلى جريدة أكونتسيمنتو، وهو يلفت الأنظار إلى أنه ليس هناك ما يقال أكثر، لأنه يوجد هناك سرّ التحقيقات. الباحث الاجتماعي الذي يعمل في تلك الوردية والذي قام بإنجاز بحث عن العنف في أوروبا كان يوجد في مكتبه، تحدث عن فيلم أمريكي يُشاهَد فيه رجل مقطوع الرأس ووصل إلى نتائج علم نفس تحليلية تقريبًا.

فرمينو يسأل: ولكن ماذا أدخل كل هذا؟

علّق المحامى بإيجاز: إنها ثرثرة، آه، نعم، يستعينون بسرّية التحقيقات. ما رأيك أن تدعوني على العشاء؟ فأنا محتاج حقًّا إلى الاسترخاء.

توجّه إلى دونا روزا.

– ماذا يقدم المنزل هذا المساء يا دونا روزا؟

عرضت دونا روزا قائمة الطعام. لم ينطق المحامى ب أي تعليقات ولكنه بدا راضيًا لأنه نهض ودعا فرمينو ليتبعه. صالة الطعام ما زالت مظلمة، ولكن المحامى أشعل الأنوار

fb/mashro3pdf

كأنه صاحب المكان واختار المنضدة التي يريدها.

قال فرمينو: إذا كان لديها زجاجة خمر نصفها مستخدَم باقية عندها من الغداء فلتقُل لدونا روزا أن تلقيها، لا أتحمل زجاجات الخمر المستخدم نصفها كما يحدث في بعض البنسيونات، إنها تسبب لى الكآبة.

كانت الطاهية عند دونا روزا قد أعدّت في تلك الليلة الكباب بصلصة الطماطم وفى الطبق الأول كان يوجد حساء القنبيط الأخضر. وصلت النادلة ذات الشوارب بالصحن الذي ينبعث منه البخار والمحامى جعلها تتركه على المنضدة، للحذر.

قال فرمينو لمجرد أن يقول شيئًا: كنت تتحدث عن سرية التحقيقات.

ردّ المحامى: نعم، سرية التحقيقات، يسعدني أن أتحدث معك عمّا يسمى سرية التحقيقات، ولكن هذا سيقودنا حتمًا إلى موضوع أكثر إلزامًا وربما مزعج جدًّا لسيادتك، وأنا لا أريد إزعاجك.

أجاب فرمينو: لا تزعجُنى إطلاقًا.

سأل المحامى: ألا ترى أن الحساء شديد السيولة؟ يعجبني أن يكون أكثر سُمكًا، البطاطس والبصل هما سرّ حساء القنبيط الأخضر الجيّد.

fb/mashro3pdf

ردّ فرمينو: على أية حال، إنك لا تزعجني إطلاقًا، إذا كنت تريد التحدث عنه فلنتحدث إذن، كلّى آذان صاغية.

قال المحامى: لقد فقدت خيط الحوار.

أوجز فرمينو: كنت تقول لي إن الحديث عن سرية التحقيقات سيحملك حتمًا إلى موضع أكثر إزعاجًا.

همهم المحامى: آه، نعم.

وصلت النادلة بصينية الكباب وبدأت تخدمهما، المحامى، جعلها تنثر صلصة الطماطم كبداية بوفرة.

قال المحامى وهو يلفّ واحدة من الكباب في الصلصلة: فلسفة الأخلاق.

سأل فرمينو: فلسفة الأخلاق؟ ماذا تعنى؟

أجاب المحامى: سرية التحقيقات - فلسفة الأخلاق المهنية، إنه مزدوج عناصر لا ينفصل، على الأقل ظاهريًّا.

قفزت منه واحدة من قطع الكباب التي يريد أن يقطعها بالسكين من الطبق وسقطت على قميصه. كانت النادلة تتابع الموقف وأسرعت ولكن المحامى وقفها بحركة سريعة.

قال: واحدة كباب - قميص، أيضًا هذا مزدوج عناصر، في ما يتعلق بى على الأقل. لا أعلم إن كنت قد أدركت أن

fb/mashro3pdf

العالم عبارة عن عنصرين، تسير الطبيعة على ترتيب مزدوج العناصر. أو حضارتنا الغربية على الأقل، التي قامت بكل التصنيفات فيما بعد، فكّر في القرن الثامن عشر، في أنصار مذهب الطبيعة، ما أعرف، في ليونيل، ولكن كيف نقول إنه أخطأ، في الواقع هذه الكرة البائسة الصغيرة التي تدور في الفضاء والتي نسبح عليها تخضع لنظام بدائيّ تمامًا وهو ذلك المزدوج. ما رأي سيادتك؟

أجاب فرمينو: يعنى، إما ذكر وإما أنثى، لمجرد أن نسهّل الأمر، هل هذا هو النظام الذي تسمّيه سيادتك مزدوجًا؟

أكد المحامى: المعنى هو هذا، الذي ينشقّ منه التحقيق والكذب، على سبيل المثال، وهنا يلزم حتمًا حوار مزعج حقًا، وكما قلت لك لا أريد إزعاجك، الحقيقة والكذب معذرة لهذا التحليق المدارىّ، ولكن هذه هي فلسفة الأخلاق، ومن الواضح أنها مشكلة الحق، ولكنى لن أحدّثك عن توافقات سفسطائية، فالأمر لا يستحق.

نفخ كما لو كان غاضبًا، ولكنه يبدو غاضبًا بالأخصّ من نفسه.

أصدر صفيرًا فجأة: هل تعتقد سيادتك أن الكون مزدوج أيضًا؟

نظر فرمينو إليه وهو متمنع.

fb/mashro3pdf

سأل: بأي معنى؟

كرّر المحامى إذا كان مزدوجًا مثل الأرض، هل هو مزدوج مثل الأرض في رأي سيادتك؟

لم يعرف فرمينو ماذا يجيب وهكذا فكّر أن يردّ عليه السؤال: ماذا تعتقد سيادتك؟

أجاب المحامى: لا أعتقد، أتمنى لا، فلنقل إني أتمنى لا.

قام بعمل إشارة للنادلة وهو يشير إلى الكوب الفارغ.

قال: إنه فقط أمل، أمل من أجل الجنس البشرى الذي ننتمي إليه، ولكنه في الأصل لا يتعلق بنا مباشرة لأنه لا أنا ولا سيادتك سنعيش كثيرًا حتى نعرف كيف هي أندروميدا، على سبيل المثال، وماذا يحدث في هذه الأنحاء. ولكن فكّر سيادتك في كل هؤلاء العلماء في وكالة ناسا وما شابه هذا الذين يعملون كثيرًا لأنه في خلال قرن أو اثنين سيستطيع أحفادنا أن يصلوا إلى تلك الأماكن التي تُسمَّى حدود النظام الشمسي، وتخيّل وجوه أحفادنا المساكين الذين بعد رحلة طويلة هكذا في يوم جميل يهبطون هناك فوق من سفينة الفضاء ويجدون بناءً مزدوجًا، ذكرًا وأنثى، حقيقة وكذبًا، وربما خطيئة وفضيلة... آه، نعم، لأن النظام المزدوج يتطلب أيضًا حتى إذا كانوا لا يتوقعون، رجل دين كاثوليكيًّا أو من أي ديانة يقول لهم: "هذا باعث على الخطيئة، وهذا باعث على الفضيلة". آه،

fb/mashro3pdf

إذا كنت تتخيل، كيف سيكون ردّ فعلهم؟

اعترَت فرمينو رغبة في الضحك ولكنه اكتفى بالابتسام.

قال: أيها المحامى، أعتقد أن الخيال العلمي لم يفكر بعد في تلك النقطة، فأنا أقرأ كثيرًا كتب الخيال العلمي، ولكن يبدو لى أنى لم أجد بعد مشكلة مثل تلك.

قال المحامى: آه، لم أشك أن الخيال العلمي يعجبك.

أجاب فرمينو: يعجبني جدًّا، إنها قراءاتي المفضلة.

سعل المحامى بقرقرته الخفيفة التي كانت تبدو ضحكة.

همهم: حسنًا، حسنًا، وما دخل لوكاتش بهذه القراءات؟

شعر فرمينو أن وجهه سيتضرج خجلاً، وظن أنه وقع في شرَك وردّ بنوع من التفاخر والاعتداد بالنفس.

أجاب: لوكاتش ينفعني من أجل دراسة الأدب البرتغالي لفترة ما بعد الحرب، والخيال العلمي ينتمي إلى الخيال.

ردّ المحامى: أريدك هنا، الخيال. إنها كلمة جميلة، وأيضًا مفهوم نتأمل فيه، تأمل، إذا كان لديك وقت. بالنسبة إلىّ فأنا أتخيل الآن الحلوى التي أحضرَتها لنا دونا روزا هذا المساء، إنها فعلاً بالكرامل، ربما من الأفضل أن أتنازل، بعد هنيهة سأذهب لأنام لأن يومي قد انتهى، ولكن ربما يجب أن

fb/mashro3pdf

يستمرّ يومك في شيء مفيد.

قال فرمينو: كل ما أستطيع أن أقول، على سبيل المثال؟

– زيارة سريعة على سبيل المثال لبترفلاي بوتشينى، إنه مكان يمكن أن يمنحنا أخبارًا هامّة. وهكذا نلقى نظرة.

انتهى من شرب كوبه وأشعل واحدًا من سيجاره الضخم.

أكمل بينما يحترق الثقاب بين أصابعه: زيارة خاطفة حسب تقديرك، الناس الموجودون على سبيل المثال، الموظفون، إذا كان الجرللو ڤردى من تلك الأنحاء، لأنهم قالوا لى إن لديه مكتبًا في هذا المكان، تجاذُب الحديث معه يمكن أن يكون مفيدًا، يجب أن تكون مهمة البوليس، ولكن هل ترى سيادتك البوليس في بترفلاي بوتشينى؟

أكّد فرمينو: لا أراه.

شرح المحامى: تمامًا، لا أريدك أن تشعر أنك فيليب مارلو، ولكن يمكننا أن نحاول معرفة أي شيء بسيط عن الجرللو ڤردى، ربما جرائم صغيرة، لأنه هل تعلم ماذا يقول دى كوينسى؟

سأل فرمينو: ماذا كان يقول؟

– يقول: إذا ترك أحد نفسه يذهب مرة ليقتل فسرعان ما

fb/mashro3pdf

يعتبر السرقة شيئا بسيطا، ومن هنا سيصل إلى شرب الخمور وإلى عدم الاكتراث بالشكليات، وبالتالي يتصرف بطريقة غير مهذبة وعدم احترام للالتزامات، وعندما يتوجه إلى هذا المنحدَر لا أحد يدرى ما سيكون مصيره، وكثيرون يَعْزُون انهيارهم إلى جريمة القتل هذه أو تلك التي لم يكترثوا بخطورتها وهم يفعلونها. انتهى القول.

ابتهج المحامى مع نفسه وأضاف: أيها الشابّ العزيز، لا أريد أن أزعجك. كما قلت لك، ولكن نفترض أنني، الذي كنت أتحدث إليك عن فلسفة الأخلاق المهنية، يمكن أن يكون لدىّ احتياج إلى مساعدة لكسر ما يُسمَّى حجاب الجهل. لن أطيل، إنه تحديد من باحث قانوني أمريكي وهو حديث نظري بحت، ويوجد في ما يشبه كهفًا من كهوف أفلاطون. ولكن لنفترض مع تحليقاتى المدارية أن أجعل هذا المفهوم يهبط على المجال العملي البحت، فلنقُل الواقعىّ، وهو الشيء الذي لن يسامحني عليه أي عالم في نظريات العدالة، ولنقُل إني أخدع نفسي بشكل عالٍ جدًّا، فماذا تظنّ سيادتك في هذا الشأن؟

أجاب فرمينو بتلقائية: إن الغاية تبرر الوسيلة.

ردّ المحامى: ليس هذا هو استنتاجي بالضبط، ولا تكرر بعدُ هذه العبارة، فأنا أكرهها، مع هذه العبارة ارتكبت البشرية أسوأ أشكال الوحشية، إذا كنت أستفيد منك بقليل من الحياء، أي من جريدتك، واضح؟

fb/mashro3pdf

ردّ فرمينو: واضح جدًّا.

– ولنقل إني أستطيع دائمًا أن أجد مبرّرات لنفسي ببعض تحديدات نظرية الحق، أستطيع أن أؤكّد بشيء من السخرية أنى أنتمي إلى مدرسة من جاؤوا بعد ما يُسمَّى مفهوم الحدس، ولكن لا، فلتدعْه أيضًا عملية خيال كيفي. هل تروق لك هذه التحديدات؟

فرمينو موافقًا: تروق لى.

قال المحامى: وهكذا مع عملية الخيال الحسّى نستطيع أن نصل إلى عكس تناقض دى كوينسى، أى: بما أنى مقتنع جدًّا أننا لن نستطيع إثبات أن الجريللو ڤردى يقطع رؤوس الآخرين بالسكين الكهربي، فسنحاول أن نثبت أنه يتصرف بطريقة سيئة في المجتمع، ما أدرى، أنه يهشم الأطباق على رأس زوجته، واضح؟

أجاب فرمينو: تمامًا.

بدا المحامى راضيًا. اضْطَجَعَ إلى الخلف على الكرسي وفى عينيه الحائرتين تعبير حالم.

أضاف: ربما في هذه النقطة يمكن أن نُدخِل لوكاتش.

فرمينو يسأل: لوكاتش؟

ردّ المحامى مبدأ الواقع، مبدأ الواقع، وأنا لا أُدهَش أنى

fb/mashro3pdf

أستطيع مساعدتك هذا المساء رغم كل شيء، والآن ربما من الأفضل أن تنصرف أيها الشابّ، يبدو لى أنه الوقت المناسب للذهاب إلى مكان مثل بترفل أي بوتشينى، ثم بالطبع ستحكى لي كل شيء بدقّة، ولكن أوصيك، فلتهتم بمبدأ الواقع، أعتقد أنه يمكن أن يساعدك.

fb/mashro3pdf

(١٥)

يكوّن شارع افينيدا دى مونتيفيديو الذي يتواصل مع شارع افينيدا دى برازيل طريقًا محاذيًا لشاطئ البحر، أطول بكثير مما تخيّل فرمينو، ولا يتبقى له سوى أن يقطعه حتى يصل إلى المكان الذي لا يعرف على أي ارتفاع يوجد. تهبّ نسمة أطلنطية جميلة ترفرف معها أعلام فندق كبير يزدحم بكثير من الناس خصوصًا الذين يملئون شرفات محالّ الآيس كريم حيث يلعق الأطفال المترنحون بسبب النعاس الآيس كريم. ظنّ فرمينو أن البرتغاليين يحملون أطفالهم إلى الفراش متأخرًا جدًّا وأنهم ربما ينجبون الكثير من الأطفال. ثم همهم مع نفسه بعض الظنون التافهة. لاحظ أن المنطقة المزدحمة والشعبية في البداية تؤدّى بالتدريج إلى منطقة أرستقراطية وأكثر عزلة، عبارة عن فيلاّت غبية ومبانٍ من أوائل القرن العشرين، لها بلكونات من الحديد وديكورات من الكلس.

كان المحيط هائجًا إلى حدّ ما والأمواج شديدة تتحطم على الصخور.

يشغل بوتشينى بترفلاي مبنى كاملاً اعتبره فرمينو مبنى من العشرينيات. مبنى جميل به زخارف طبيعية، لها إطارات

fb/mashro3pdf

من البلاط الأخضر وشرفات ذات حوائط مثلثة في الواجهة تحاكى أسلوب مانويل.

توجَد على شرفة الطابق الأول لافتة من الضوء النيون البنفسجى بها بروزات غريبة مكتوب عليها "بترفل أي بوتشينى" وعلى كل واحدة من البوابات الثلاث للمكان لافتات أخرى أكثر بساطة تشير إلى مطعم البترفلاى، والبترفلاي الملهى الليلي والبترفلاي ديسكوتيك.

كان الديسكوتيك هو المدخل الوحيد الذي لا يوجد به بساط أحمر، البوابتان الأخريان كان يوجد بهما البساط الأحمر وكان يحرسهما بوّاب ذو ملابس أنيقة. فكّر فرمينو أن الديسكوتيك ربما يكون مكاناً غير مناسب. كان بالتأكيد مكاناً لا يستطيع أحد التحدث فيه؛ أضواء باهرة وموسيقى صاخبة. وفى المطعم لا يعرف ماذا يفعل. كان الكباب يكفيه في تلك الليلة. ولا يتبقى أمامه سوى الملهى الليلي. فتح له البواب وأدى له تحية احترام غير محسوسة. كان الضوء أزرق. يكمل الرواق بار صغير على الطراز الإنجليزي، وطاولة كبيرة من الخشب المتين وأرائك من الجلد الأحمر. كان خاويًا، تخطّاه فرمينو، وأزاح الستار القطيفة ودخل الصالة.

أيضًا الضوء هنا كان أزرق. شخص يقظ مثل خادم في مشهد ينتظر الممثل خلف الستار، ولكن كان في صوته نبرة منفّرة، همس: آه.

fb/mashro3pdf

– أهلا بك يا سيدي، هل حجزت؟

كان النادل وعمره خمسون عامًا تقريبًا يرتدى بدلة سموكنج كاملة، وشعره رمادي يبدو أزرق في الضوء الأزرق وابتسامته مصطنَعة مبالَغ فيها.

أجاب فرمينو: لا، لقد نسيت حقًّا.

همس النادل: لا يهمّ، لدىّ منضدة جيدة لسيادتك، أرجو أن تأتى خلفي.

سار فرمينو خلفه. أحصى ما يقرب من ثلاثين منضدة كلها مشغولة تقريبًا. الزبائن في منتصف العمر وبدت له السيدات خاصة أنيقات إلى حدّ ما، وأكثر الرجال يرتدون ملابس رياضية، سترات من القطن وبعض الفانلات. وفى نهاية المكان خشبة مسرح لها واجهه على الطراز الباروكى. كانت خاوية. من الواضح أن هناك استراحة، وتدوي في الصالة المدهونة باللون الأزرق موسيقى بدا لفرمينو أنه يعرفها. وأشار إلي بإصبعه بلهجة متسائلة.

وهمس له النادل: إنه بوتشينى يا سيدي، هل تعجبك هذه المنضدة؟

لم تكن قريبة تمامًا من خشبة المسرح، ولكنها جانبية إلى حد ما، وهو ما يمكّنه من رؤية الصالة كلها.

fb/mashro3pdf

– هل تناولت عشاءك يا سيدي أم تريد أن أحضر لك قائمة الطعام؟

– هل يمكن تناول العشاء هنا؟ كنت أعتقد أن المطعم هو المجاور.

أجاب النادل: لقيمات فقط، وجبات خفيفة.

– مثلاً؟

حدد النادل: سمك أبو حربة المدخّن، طواجن كابوريا باردة، أشياء من هذا القبيل، ولكن هل تفضّل أن أحضر لك قائمة الطعام أم يناسبك شيء تشربه؟

أجاب فرمينو وهو شارد: يعنى، ماذا تقترح علىّ؟

ردّ النادل: لكي لا نخطئ أقول إنه تناسبك كأس من الشمبانيا في البداية.

تذكر فرمينو أنه كان يجب عليه أن يتصل بشكل عاجل بالمدير لأنه محتاج إلى حوالة بريدية، فمقدَّم المصاريف قد انتهى، وكان يعيش مقترضًا من دونا روزا.

أجاب بعدم اكتراث: اتفقنا، فلتذهب لتحضر الشمبانيا، ولكن أتمنى أن تكون الأحسن.

مشى النادل على أطراف أصابعه مبتعدًا. توقفت

fb/mashro3pdf

موسيقى بوتشيني، خُفضت الأنوار وأضاء عاكس نور خشبة المسرح. بالطبع، على شكل مخروط أزرق. ظهرت في مخروط الضوء الأزرق فتاة شابة جميلة وشعرها معقود فوق رأسها وبدأت تغنى ودون مصاحبة موسيقية، الكلمات برتغالية ولكن اللحن كان على إيقاعات زنوج أمريكا، فقط أدرك فرمينو أنها كانت أغنية شعبية برتغالية من كويمبرا كانت الفتاة تغنيها كأنها قطعة موسيقى جاز، كان التصفيق متواضعًا وعلَت الأضواء من جديد.

وصل النادل بكأس الشمبانيا ووضعها له على المنضدة. شرب فرمينو منها رشفة. لم يكن يفهم جيدًا في الشمبانيا، ولكن ذلك كان فظيعًا بطعم مائل إلى الحلاوة. نظر حوله. كل شيء كان ناعمًا وهادئًا والجو هادئًا.

يدور الجرسونات بين المناضد بخُطًى لا صوت لها، ويبثّ مكبر صوت بشكل منخفض أغنية لشيرازيا إيفورا ويثرثر الزبائن بصوت منخفض. كان يجلس إلى المنضدة الموجودة بجواره رجل بمفرده يدخن سيجارة بعد الأخرى محملقًا بعناد إلى دلو الثلج الذي توجد فيه زجاجة الشمبانيا أمامه. لاحظ فرمينو أن تلك كانت شمبانيا حقيقية عندما قرأ الورقة اللاصقة أنها ماركة فرنسية معروفة. أدرك الرجل أن فرمينو ينظر إليه ونظر إليه بدوره هو الآخر. كان في الخمسينيات من عمره يضع نظارة من عظام السلحفاة له

fb/mashro3pdf

شارب غير مهندَم وشعره أحمر. كان يرتدى ملابس رياضية بطريقة مختلقة، فانلة بلون بين الوردي والبنفسجي تحت جاكت قطن مكرمش. رفع الرجل الكوب بيد مرتعشة تجاه فرمينو ووجّه إليه النخب. رفع فرمينو كوبه أيضًا ولكنه لم يشرب. نظر الرجل إليه بتساؤل وقرّب المقعد.

سأل: ألا تشرب؟

أجاب فرمينو: إنه ليس جيدًا، ولكنى سأنضمّ إلى نخبك كما ينبغى.

سأل الرجل وهو يغمز بعينه: هل تعلم ما السبب؟ عندما تطلب زجاجة كاملة تستطيع أن تكون واثقًا فيها، أما عند طلب كأس من الشمبانيا يقدّمون لك خمرًا محليّة ويجعلونك تدفع ثمنًا غاليًا.

سكب لنفسه كوبا آخر واحتساه في رشفة واحدة.

همس بلهجة الواثق: أنا محطَّم نفسيًّا يا صديقي العزيز، أنا محطَّم نفسيًّا.

تنهد بعمق وأسند وجهه إلى يده. كان منظرًا حزينًا.

وهمس: هي أوقفتني. أوقفتني فجأة هكذا. وهذا على طريق جيما رايس، المليء خصوصًا بالمنحنيات. أبطأت ونظرت إليها فقالت لي: "قلت لك توقّف". تفتح الباب وتنتزع

fb/mashro3pdf

عقد الألماس الذي كنت قد أهديته إليها في الصباح، ألقته في وجهي ونزلت دون كلمة واحدة، لا شيء بتاتًا وتقرع الباب. هل لديّ حقّ أن أكون محطَّمًا نفسيًّا؟

لم ينطق فرمينو، ولكنه أصدر إشارة خفيفة كأنه موافق.

الرجل يفضي بدخيلة نفسه: خمسة وعشرون عامًا فرق، لا أدرى إن كنتُ واضحًا، هل لي حق أن أُحطَّم نفسيًّا؟

هم فرمينو ليقول شيئًا ولكن الرجل أكمل من نفسه لأنه كان منطلقًا: ولهذا جئت إلى البوتشينى، فهو المكان المناسب عندما نشعر أننا محطَّمون نفسيًّا، أليس كذلك؟ هو المكان المناسب لتتحسن حالتنا النفسية، وسيادتك تعلم هذا أفضل منّى.

أجاب فرمينو: بالتأكيد، أفهم هذا تمامًا، إنه حقًّا المكان المناسب.

ضرب الرجل على زجاجة الشمبانيا ولمس أنفه في الوقت نفسه.

قال: هذه، هذه تلزمنا، واضح، ولكن المكان المناسب هناك، في الصالون.

وأصدر إشارة مبهمة نحو آخر الصالة.

همس فرمينو: آه، الصالون الصغير، بالتأكيد هو ما يلزمنا.

fb/mashro3pdf

لمس الرجل من جديد أنفه بسبابته.

– الشيء الأفضل، سعر مقبول واحترام أكيد، سيادتك ستأتي بعدى.

قال فرمينو: أتعلم؟ أشعر أنى أنا أيضًا محطَّم نفسيًّا هذا المساء، بالتأكيد أقبل دوري. أشار الرجل ذو الخمسين عامًا إلى ستارة من القطيفة موجودة بجوار خشبة المسرح تمامًا.

ضحك: لابوهيم، هو ما يلزمنا تمامًا، إنها الموسيقى المضبوطة التي ستحسن حالتنا النفسية. وضرب أنفه بسبابته من جديد.

نهض فرمينو بعدم اكتراث ودار في الصالة بطول الحوائط، بجوار الستارة التي أشار إليها الرجل ذو الخمسين عامًا كانت توجد واحدة أخرى مكتوب عليها "خدمات" مع صورة شخص بالزيّ المحلّى، فلاح وفلاحة.

دخل فرمينو دورة المياه، غسل يديه ونظر في المرآة، تذكّر توصية المحامى له بأن لا يشعر أنه فيليب مارلو. لم يكن دوره ولكن توجيه الرجل ذي الخمسين عامًا كان يهمه.

خرج من دورة المياه واندسّ خلف الستارة المجاورة بنفس عدم الاكتراث. كانت الستارة تنفتح على ممرّ مفروش بالموكيت على الأرض وعلى الحوائط. تقدّم فرمينو بهدوء. إلى اليمين كان يوجد باب مبطّن وعليه لافتة من الفضة

fb/mashro3pdf

مكتوب عليها "لابوهيم"، فتحه فرمينو فجأة وأدخل رأسه بالداخل، كان صالونًا مبطنًا باللون الأزرق، به أضواء خافتة وأريكة. يوجد على الأريكة رجل وكانت موسيقى بونتشيني، بدت له هكذا، حتى لو لم يفلح أن يفهم ب أي عمل تتعلق. اقترب فرمينو من الشخص المستلقي وبطنه إلى أعلى وضربه ضربة على كتفه. الرجل لم يتحرك.

هزّه فرمينو من ذراعه، يبدو أن الرجل كان في غيبوبة عميقة. خرج فرمينو بسرعة وأغلق الباب، وصل إلى منضدته. والرجل ذو الخمسين عامًا مستمر في الحملقة بعناد إلى زجاجة الشمبانيا.

همس له: أتدرى أنك يجب أن تنتظر؟ الصالون الصغير مشغول.

سأل الرجل بقلق: أتظنّ؟

أجاب فرمينو: أنا متأكد من هذا، يوجد بالداخل رجل في عالَم الأحلام.

اعترى الرجل ذا الخمسين عامًا مظهر يائس.

قال: ولكن سيكون شيئًا سريعًا بالنسبة إليّ، دقيقتان ربما أمرّ على مكتب المدير.

ردّ فرمينو: آه، بالتأكيد.

fb/mashro3pdf

عمل الرجل إشارة إلى النادل، تحدثا باختصار، ابتعدا معًا بطول حوائط الصالة واختفيا خلف الستارة القطيفة. خُفضت الأضواء، ظلّت على خشبة المسرح الفتاة التي كانت تغنّى البرتغالية في البداية، تملكت الجمهور بعبارتين ظريفتين ووعدت أن تغنى أغنية شعبية برتغالية من الثلاثينيات وهى ترجوهم أن يتحملوا لعشر دقائق أخرى موضحة أن عازف الكمان حدث له شيء عارض.

كان فرمينو يحملق بعينيه إلى ستارة الممر، ظهر فجأة الرجل ذو الخمسين عامًا والمحطَّم نفسيًّا وبخطوة رشيقة عبر الصالة مارًّا بين المناضد. عندما جلس نظر إلى فرمينو. لم يعد محطَّما نفسيًّا، كانت عيناه لامعتين وتعبيراته مليئة بالحيوية، أشار إلى فرمينو بإبهامه إلى أعلى كأنه قبطان يقول: أوكى.

سأله فرمينو: هل أنت في حالة نفسية جيدة؟

– خمس وعشرون عامًا أقل منى، ولكنها كانت عاهرة، كان يلزمنى فقط لحظة تأمُّل لكي أدرك هذا.

همس فرمينو بدوره: تأمُّل ثمين بعض الشيء.

قال الرجل: مائتا دولار تم إنفاقها، إنه رخيص حقًّا، إذا أخذنا في الاعتبار الاحترام.

ردّ فرمينو: ليست غالية الثمن في الواقع، للأسف لقد

fb/mashro3pdf

نسيت الدولارات في المنزل.

قال الرجل ذو الخمسين عامًا: أن تيتانيو يقبل الدولارات فقط يا صديقي العزيز، فلتضع نفسك مكانه، هل ستقبل سكودات برتغالية مع كل المخاطر الموجودة؟

أكد فرمينو: بالتأكيد لا.

نظر فرمينو إلى فاتورة الحساب وأحصى النقود بالسنتيم. لحسن الحظّ كان يدفع سكودًا. كانت لديه رغبة أن يقطع طريق البحر كله على قدميه، وكان متأكدا أن بعض الهواء سيفيده.

fb/mashro3pdf

(١٦)

دخل فرمينو إلى فناء المبنى الواقع في شارع روا داس فلورس ومرّ أمام غرفة البوابة الصغيرة. نظرت إليه المرأة نظرة خاطفة وغمرت نظرها مرة أخرى في عمل البلوفر. عبر فرمينو الممرّ وضرب الجرس. فُتح الباب فجأة مثل أول مرة.

كان السيد فرناندو جالسًا على منضدة مغطّاة بقماش أخضر، تقريبًا في توازن على مقعد يتحمل بالكاد ضخامته، وأمامه كانت توجد لعبة الكوتشينة، كان سيجاره مشتعلاً وكانت منفضة سجائر موجودة على المنضدة وكان يستهلك ببطء. في الصالة كانت تفوح رائحة عفونة ودخان كريه.

قال السيد فرناندو: أنا ألعب سبايت ومماليس، ولكنى لا أكسب، فاليوم سيئ بالنسبة إليّ، هل تستطيع أن تلعب سبايت ومماليس؟

ظل فرمينو ثابتًا أمامه ومعه لفة جرائد تحت إبطه ونظر إلى المحامى دون أن يقول شيئًا.

قال السيد فرناندو: يسمّونها ألعاب الصبر، ولكنه تحديد

fb/mashro3pdf

غير مضبوط يلزم أيضا الإحساس والحكمة أكثر من الحظ، بالطبع هذه مختلفة عن الميلجان، ألا تعرف ولا حتى الميلجان؟

أجاب فرمينو: بصراحة نعم.

السيد فرناندو يشرح: تلعب لعبة الميلجان بلاعبين وكومتين باثنين وخمسين كارتًا وكومتين في ازدياد، تبدأ بالواحد والبنت، تتصاعد الكومة مع الواحد وتهبط مع البنت، ولكن ليس هذا هو الشيء الجميل، فالجميل هو العوائق.

أخذ المحامى السيجار الذي قد كوّن سنتيمترين من الرماد وأخذ منه نفسًا بشهوة.

أكمل: سيادتك يجب أن تتعلم شيئًا مما يُسمَّى ألعاب الصبر، البعض لديهم نظام يشبه هذه العقلانية الفظيعة التي تحكم حياتنا، الميلجان على سبيل المثال، فلتجلس أيها الشابّ على هذه الأريكة الصغيرة.

جلس فرمينو ووضع لفّة الجرائد على الأرض.

قال المحامى: لعبة الميلجان مشوقة جدًّا، قائمة على التحركات التي ينفذّها كل لاعب بهدف وضع عراقيل للحد من لعب الخصم بعده، وهكذا على التوالي مثل ما يحدث في المسابقات الدولية في جنيف.

نظر إليه فرمينو وارتسم على وجهه تعبير دهشة. حاول

fb/mashro3pdf

بسرعة أن يفسّر ما قاله المحامى ولكنه لم يفلح.

سأل: محادثات جنيف؟

قال المحامى: لقد طلبت منذ سنوات أن أكون مراقبًا على محادثات نزع السلاح النووي والصاروخي التي تجرى في مقر الأمم المتحدة في جنيف. عقدت صداقة مع سيدة، سفيرة إحدى البلاد التي تقترح عدم التسلّح. كانت تفترض أن بلدها الذى يقوم بتجارب نووية ينشغل أيضًا من أجل نزع السلاح النووى في العالم، أتفهم الفكرة؟

قال فرمينو: أفهم الفكرة، إنه تناقض.

أكمل المحامى: حسنًا، كانت السيدة على ثقافة ممتازة، لها شخصية ولكنها كانت بالأخص مولَعة بألعاب الكوتشينة وطلبتُ منها أن تشرح لى آلية هذه المحادثات التي لا أفهمها. أتدرى بماذا أجابتني؟

ردّ فرمينو: لا أدرى.

قال فرناندو: أن أتعلم الميلجان، لأن طريقة التفكير كانت واحدة، أي أن كل لاعب يزعم التعاون مع الآخر يكوّن سلسلة من الورق مفكرًا في فخاخ للحدّ من لعب الخصم. ما رأيك في هذا؟

أجاب فرمينو: لعبة جميلة.

fb/mashro3pdf

قال السيد فرناندو: آه، نعم، وعلى هذا يعتمد التوازن الذرّى في كوكبنا، على الميلجان.

ضرب على كومة من الورق: ولكنى ألعبها بمفردي، بطريقة سبيت وماليس، يبدو لي هذا مناسبًا أكثر.

سأل فرمينو: ماذا تعنى؟

- أي ألعب منعزلاً، بطريقة أكون فيها أنا هو خصمي في الوقت نفسه، يبدو لي أن الموقف يتطلب هذا، على أنه صواريخ تُقذف وصواريخ يتمّ تحاشيها.

أوضح فرمينو بسعادة: صاروخ عندنا لن يكون برأس نووي، ولكنه يكون شيئًا ما.

هدم السيد فرناندو لعبة الصبر وبدأ يجمع الأوراق واحدة واحده. قال: أنت تعجبني أيها الشابّ.

قال فرمينو: إنهم يروّجون في البوتشينى بترفل أي ويستهلك في نفس المكان. هناك صالونات خاصة في الممر، وموسيقى أوبرالية مريحة، أعتقد أنه يمكن أن يكون كوكايينًا بالأخص، ولكن ربما توجد أشياء أخرى أيضًا، شمة واحدة تكلف مئتى دولار وتيتانيو سيلفا هو بالتأكيد من يدير الحفلات الموسيقية. هل أفضحه على صفحات جريدتي؟

نهض المحامى وعبر الغرفة بخطوة غير ثابتة، توقف

fb/mashro3pdf

بالقرب من منضدة ذات من طراز كلاسيكي توجد عليها صورة في إطار لم يلاحظها فرمينو. استند بذراعه على رخام المنضدة في وضع بدا لفرمينو مسرحيًّا وقضائيًّا كأنه في ساحة محكمة يتوجه إليها.

صاح: سيادتك مراسل صحفي بارع أيها الشابّ، مع بعض الحدود، ولكن، لا يلائمنى أن أكون دون كيشوت لأن الضابط تيتانيو سيلفا طواحين هواء خطير جدًّا. وبما أننا نعلم جيدًا أن دون كيشوت بطلنا قد وجد نفسه في ظروف سيئة بعد أن سحلته مجارف الطواحين، وبما أنني لا أستطيع ولا أريد أن أكون سانشو باتسا تابعه الذي يدهن له جسده المُصاب بالرضوض بزيت البلسم، سأقول لك شيئًا واحدًا فقط وافتح أذنيك جيدًا لأنه شيء جوهري مثل حركة في لعبة الميلجان. أنت الآن تصوغ تفاصيل مقال صحفي لترسله إلى وكالة صحفية، وهذا المقال الذي تفضله بشدة هو "بترفلاي بوتشينى" بصالوناته الدافئة والموسيقى الأوبرالية، أظرف الموادّ المختلفة والدولارات التي يحصّلها المحاسب الجيّد الماهر تيتانيو سيلفا، كل هذا، كنت أقول، سيحمل جملاً من الصحافة البرتغالية، كل الصحافة الممكنة والتي يمكن أن تصوّرها، تلك التي تحب كثيرًا الحالات الرائعة والمتقدة للجنس البشرى والتي تحب كثيرًا المؤسسات الرياضية للعاملين في الصناعة في الشمال باعتبارها طريقة أخرى لفهم الحالات الرائعة والمتقدمة للجنس البشرى، إذن كل واحد يزوّد بالخبر على طريقته، مَن بوحشية

fb/mashro3pdf

ومَن بفضيحة ومَن بالتحفظات... ولكن الكل يجب أن يكتبوا أنه ربما، فلنقل ربما، في أعقاب شهادات محددة، يروّجون بلا عقاب في المكان المذكور أعلاه، هو حال تدعمه غفلة الحرس الوطني الغريبة، الذي لم يفتّشه قط، في المكان المذكور أعلاه، تروّج بودرة هلوسة، هل تعجبك الصفقة؟ مقابل ثمن زهيد، مئتى دولار للمظروف، يعنى ثلث المرتب الشهري لموظف برتغاليّ عاديّ، بهذه الطريقة نرسل إلى البوتشينى، ومن الواضح إلى السيد تيتانيو، تفتيشًا جميلاً من البوليس القضائي.

بدأ المحامي وهو يتنهد. أخرج زفيرًا مثل من يختنق وأصدر تنفسه صوتًا كالمنفاخ القديم.

قال: كل بسبب الـ"بوروس"، علىّ أن أشترى الـ"بوروس" الإسبانية لأن الهافانا لا توجد بعد، لقد أصبحت ذكرى، ولكن ربما هذه الجزيرة أيضًا مجرد ذكرى.

ثم أكمل: نحن نخرج عن الموضوع الرئيسي، في الواقع أنا الذى أخرج عن الموضوع، معذرة، فاليوم تعجّ في رأسي أشياء كثيرة.

كانت يده التي يسند عليها وجهه تؤلم وجناته المتدلية.

أضاف: ثم إنى نمت بطريقة سيئة، عندي أرق والأرق يأتي بالأشباح ويُفنِى الوقت. هل تعلم ماذا يعنى عندما يفنى الوقت؟

fb/mashro3pdf

نظر إلى فرمينو بتساؤل، وشعر فرمينو من جديد بحيرة غاضبة؛ لا تعجبه هذه الطريقة التي يستخدمها معه السيد فرناندو وربما مع آخرين، كأنه يريد مشاركة أو ينتظر الموافقة على شكوكه ولكن بطريقة تهديديه تقريبًا.

همس المحامى: الوقت، أدرك أنك لست المُحاور المناسب. بالتأكيد أنت شابّ والوقت بالنسبة إليك عبارة عن شريط ينبسط أمامك مثل سائق سيارة يسير على طريق مجهول واهتمامه الوحيد هو ما يأتي بعد المنعطف القادم. ليس هذا كل ما أريد أن أقوله، كنت ألجأ إلى مفهوم نظرىّ، اللعنة! من يدرى لماذا تستهوينى هذه النظريات كثيرًا هكذا! ربما لأنى أعمل في القانون، وهذه أيضًا نظرية هائلة، مبنًى غير ثابت تنفتح على سقفه قبّة لا نهاية لها مثل القبة السماوية التي نلاحظها بكل راحة ونحن نجلس على أرائك مرصد. إذا جاء بين يدَىّ ذات مرة موضوع في الفيزياء النظرية، إحدى هذه الدراسات المتقَنة من بعض علماء الرياضيات القابعين في الصوامع الجامعية المرفّهة والذي كان يتحدث عن الوقت وجملة جعلتني أفكّر، تقول الجملة إنه في وقت ما بدأ الوقت يوجد في الكون، ويضيف العالِم بكل مكر أن هذا المفهوم يبدو غير مفهوم لمستوياتنا العقلية.

نظر إليه فرمينو بعيونه المتسائلة، غيّر وضعه، وضع يديه في جيوبه بطريقة الشقىّ الذي يريد أن يثير شخصًا ما.

fb/mashro3pdf

قال بلهجة تحدٍّ: لا أريد أن أبدو معتدًّا برأيي ولكنّ مفهومًا مجردًا هكذا كان في حاجة إلى تفسير بشرىّ، أتفهم؟

أجاب فرمينو: أحاول.

استمر المحامى: الحلم، الفيزياء النظرية على المستوى البشرى ممكنة فقط في الحلم، لأن ترجمة هذا المفهوم في الواقع يمكن أن تحدث هنا بكل بساطة، تمامًا هنا بالداخل.

ضرب نفسه ضربة على وجنته.

أكمل: في رؤوسنا البسيطة، ولكن فقط في أثناء النوم، في هذا الفراغ اللانهائى الذي يعتبر اللاوعى في حالته المنطلقة طبقًا للدكتور فرويد. حقيقىّ أن شرطىّ التحقيق هذا لم يكن يستطيع أن يجمع بين الحلم وافتراض الفيزياء النظرية، ولكنه سيكون شيئًا مشوّقًا إذا فعله شخص ما في يوم من الأيام. هل يضايقك أن أدخن؟

ترنح حتى المنضدة وأشعل سيجارة. نفخ نفثة دون أن يبتلع الدخان ورسم دوائر في الهواء. قال بلهجة تأمليه: أحلم أحيانًا بجدتي، أحلم بجدي كثيرًا جدًّا. أتدرى؟ لقد كانت مهمة جدًّا لطفولتي؛ لقد كبرت معها حتى لو كانت المعلمات هن اللائي ينشغلن بى في الواقع. وأحيانًا أحلم بها وهى طفلة لأن جدتي أيضًا كانت طفلة بالتأكيد. تلك العجوز الفظيعة، السمينة مثلى، شعرها معقود فوق رأسها والشريط على عنقها،

fb/mashro3pdf

والملابس السوداء من الحرير، وطريقتها في استدراجي بهدوء عندما كانت تجبرني على تناول الشاي في غرفتها، تلك المرأة المرعبة التي كانت كابوسًا لى في اليقظة دخلت في أحلامي ودخلت فيها طفلة. شيء غريب! لم أتخيل قط أن تلك العجوز الشمطاء كانت طفلة، وعلى العكس فهي طفلة في أحلامي، ترتدي رداءً أزرق خفيفًا مثل السحابة، تسير بأقدام عارية، وشعرها الخشن يتدلى على أكتافها، شعر خشن أشقر. وأنا على الجانب الآخر من مجرى نهر صغير وهى تسعى أن تلحقني محاولة أن تضع قدميها الصغيرتين ورديّتَى اللون على صخور مجرى الماء. أنا أعلم أنها جدتى، ولكنها في الوقت نفسه طفلة كما أنا طفل، لا أعلم إن كنت واضحًا، أأنا واضح؟

ردّ فرمينو بحذر: لا أدرى.

أكمل المحامى: لست واضحًا، لأن الأحلام لا يتم شرحها، لا تأتى على مستوى الأشياء القابلة للصياغة، كما يودّ الدكتور فرويد أن يجعلنا نعتقد، فقط كنت أريد أن أقول إن الوقت يمكن أن يبدأ هكذا، في أحلامنا، ولم أفلح أن أقوله.

سحق السيجار في المنفضة وأخرج واحدة من تنهداته العميقة التي تبدو كهواء منفاخ.

قال: أنا مُتعَب، أنا في حاجة إلى الاسترخاء، لدىّ أشياء محسوسة أكثر لأقولها لك، ولكننا يجب أن نخرج الآن.

fb/mashro3pdf

أوضح فرمينو: لقد جئت ماشيًا، فكما تعلم ليس لدى سيارة.

قال السيد فرناندو: مشيًا لا، مع كل هذا الشحم أتعب كثيرًا في السير، قد نستطيع أن يصطحبنا إيمانويل إذا لم يكن لديه عمل كثير في حانته، إنه هو من يقود لي السيارة في أوقات نادرة، فهو يعتنى بسيارة أبى، إنها شيفرولية طراز ١٩٤٨ ولكنها تعمل جيدًا، بها موتور يعمل كالحرير. يمكن أن نسأله إذا كان من الممكن أن يصطحبنا في نزهة.

فهم فرمينو أن المحامى كان يريد موافقته وأسرع مشيرا بالموافقة برأسه. أخذ السيد فرناندو الهاتف واتصل بإيمانويل.

قال المحامى: ليس من السهل الفرار من أوبرتو ولكن ربما المشكلة الحقيقية هي أنه ليس سهلاً أن نفرّ من أنفسنا. لا تؤاخذنى على صراحتي.

السيارة كانت تسير على طريق البحر وكان السيد إيمانويل يقود بكل تواضع، ولقد حلّ الظلام وكانوا يرون على يسارهم أضواء المدينة من بعيد. مرّوا أمام مبنى فخم مكسوّ بأحجار الأرديزيا، أشار المحامى بيده إشارة شاردة إليه.

– قال: إنه مقر الطاقة الكهربية القديم، إنه مبنى شؤم حقًّا. الآن هو عبارة عن مخزن لذكريات المدينة، ولكنى عندما كنت طفلاً وكانوا يصطحبوننى إلى المزرعة لم تكن الكهرباء

fb/mashro3pdf

قد دخلت بعد إلى الريف وكان الناس لديهم إنارة بالكيروسين.

سأل السيد إيمانويل وهو يستدير خفيفًا: إلى بيت الحيوانات؟

ردّ المحامى: إلى بيت الحيوانات.

خفض زجاج النافذة وأدخل بعض من الهواء المنعش.

همس: إن بيت الحيوانات هو طفولتي الأولى، أول سنوات حياتي قضيتها هناك، كانت معلمتي الألمانية تحملني إلى المدينة لاحتساء الشاي يوم الأحد مع جدتي التي حلّت محلّ والدتى، كانت تسكن هناك واسمها مينا.

السيارة عبرت الكوبرى، دارت إلى اليمين وسارت في شارع قليل المرور. استطاع فرمينو أن يقرأ لافتتين على ضوء أعمدة النور: إدينهو، ماسّاريلوس. مكانان لا يوحيان إليه بشىء.

قال المحامى: عندما كنت طفلاً كانت مزرعه مزهرة، ولهذا كانت تُسمَّى بيت الحيوانات، خصوصًا الخيول والبغال والخنازير. والأبقار لا، كان المربّون يحتفظون بها في الشمال بالقرب من أمارنتى، هنا كانت توجَد الخيول بالأخصّ.

تنهد ولكن أنفاسه كانت ضعيفة غير محسوسة.

أكمل بهمس: مربّيتى كانت تُدعَى مينا. كان اسم

fb/mashro3pdf

تصغير، لقد ناديتها باستمرار مينا، ماما مينا، امرأة بدينة ولها ثدي يمكن أن يربّى عشرة أطفال كنت آوى إليه لأجد الأمان.

أبدى فرمينو ملحوظة: هي في الحقيقة ذكريات جميلة.

أكمل المحامى دون أدنى اكتراث بعبارة فرمينو: ماتت مينا مبكرًا جدًّا، ولقد أهديتُ المزرعة للأسف إلى ابنها ووعدني أن يحافظ أيضًا على بعض الخيول، وهو يحتفظ بثلاثة أو أربعة خيول، حتى لو كان يستغنى عن هذا فهو يفعله إرضاءً لرغبتي، ليُشعِرنى أنى في منزل طفولتي، حيث ألجأ إليه عندما أشعر بحاجة إلى المواساة والتأمل، وجورج ابن ماما مينا هو الوحيد الذي تبقّى لي من أقاربي، هو أخي في الرضاعة وأذهب إليه في منزله متى أرغب. انظر، هذا المساء لسيادتك كل التميّز.

ردّ فرمينو: أدرك هذا.

دخل السيد إيمانويل في شارع صغير محفور تهبّ منه سحابة تراب خلف السيارة. ينتهي الشارع عند مخزن حبوب ومنزل ريفيّ مشيَّد على الطريقة القديمة. كان يوجد تحت سدّة الباب رجل عجوز ينتظرهم. نزل المحامى واحتضنه. صافحه فرمينو. همهم الرجل بكلمة ترحيب وفهم أنه كان شقيق السيد فرناندو في الرضاعة. دخلوا في صالة ريفية مسقوفة بأعمدة من الخشب بها منضدة مجهزة لخمسة أشخاص. دُعى فرمينو

fb/mashro3pdf

إلى الجلوس، هُرع المحامى إلى المطبخ يسبقه السيد جورج، وعندما عادا كانا يحملان دورقًا من النبيذ الأبيض وملأت الفتاة التي كانت تعقبهم كل الكؤوس.

أوضح المحامى: هذا هو خمر المزرعة، أخي يصدّره إلى السوق الخارجية ولكن هذه الزجاجة لا توجد في السوق، فهى فقط للاستهلاك الداخلي.

أصدروا إشارة نخب وجلسوا إلى المنضدة.

قال المحامى للسيد جورج: فلتدعُ زوجتك أيضًا لتأتى.

أجاب السيد جورج: أنت تعلم أنها تخجل وتفضّل أن تتناول العشاء مع الفتاة في المطبخ، وتقول إنه مجلس رجال.

كرّر السيد فرناندو بلهجة متسلطة: فلتدعُ زوجتك أيضًا، أريدها أن تأتى معنا على المنضدة.

دخلت الزوجة ومعها إناء من الفخار، حيّتهم وجلست في صمت.

أوضح السيد جورج للمحامى كأنه يعتذر: ضلوع خنزير مشويّة، أنت تتصل دائمًا في آخر لحظة، هذا كل ما استطعنا أن نحضره، الخنزير ليس من مزرعتنا ولكن ثق به.

في أثناء العشاء لم يقولوا شيئًا، أو أشياء قليلة، الطقس، ذلك الحارّ الرطب، المرور الذى أصبح مستحيلاً، أشياء من

fb/mashro3pdf

هذا القبيل.

السيد إيمانويل تجرأ وقال نكتة: آه عزيزي جورج، لو كان عندي في مطعمي طاهٍ مثل طاهيك!

أجاب السيد جورج ببساطة: الطاهي عندي هو زوجتي.

انتهى الحوار هنا. دخلت الفتاة التي كانت قد قدّمت النبيذ من المطبخ وجاءت بالقهوة.

قال المحامى للسيد جورج متجهًا إلى السيد فرناندو: إنها حفيدة يواقيم، وهى تمكث معنا أكثر مما تمكث في منزلها. هل تتذكر يواقيم؟ لقد عانى كثيرًا قبل أن يموت.

وافق المحامى ولم يجب. أخذ السيد جورج زجاجة النبيذ وسكب منها في الكؤوس.

قال فرناندو: سأبقى هنا أنا وإيمانويل على المنضدة لنتحدث، فلدينا حديث كثير عن السيارات القديمة، إذا كنت تريد أن تصطحب ضيفك ليرى الخيول فلتذهب إذن.

نهض المحامى وبيده كأس النبيذ وتبعه فرمينو إلى خارج المنزل. كانت السماء مليئة بالنجوم وبالسماء إضاءة غير عادية. يبزغ من خلف التلال انعكاس أضواء مدينة أوبرتو.

تقدّم المحامى بضع خطوات من مخزن الحبوب

fb/mashro3pdf

وبجواره فرمينو. رفع ذراعه وعمل حركة دائرية متتبعًا استدارة مخزن الحبوب، قال: شجر السفرجل، هنا في كل ما حولنا كان يوجد شجر التفاح، في الماضي الخنازير كانت ترعى تحته، لأن ثمارًا كثيرة كانت تقع على الأرض، ومينا تضع المربى في قِدر كبير سوداء اللون، كانت تجعلها تغلي في المدفأة. علاوة على الجرن كانت ترى أشكال الإسطبلات ومخازن التبن الداكنة اللون.

تَوجّه المحامى إليه بخطواته المهتزة وهمس: هل يوحى إليك اسم آرثر لوندون بشيء؟

فكر فرمينو لبرهة، كان خائفًا باستمرار عندما يجيب على تلك الأسئلة المفاجئة التي يطرحها عليه المحامى.

ألحّ من جديد: أليس هو الضابط التشيكي الذي عذّبه الشيوعيون في بلده؟

أضاف المحامى: لأنه كان يعترف بالزيف، وكتب فيه كتابًا عنوانه "الاعتراف".

صرّح فرمينو: لقد شاهدت الفيلم.

همهم المحامى: إنه يفعل نفس الشيء، وأسماء حراسه الأساسيين هي كوهوتيك وسمولا، وهذه هي أسماؤهم بالضبط.

فتح باب الإسطبل ودخل وكانت توجد ثلاثة خيول،

fb/mashro3pdf

وركض أحدها بقدميه كأنه مذعور. توجد فوق الباب لمبة زرقاء مثل لمبة القطارات. جلس المحامى بثقل فوق مكعَّب من القشّ المضغوط وفعل فرمينو مثله.

قال دون فرناندو: هذه الرائحة تعجبني، عندما أشعر أنى محبَط، أجيء إلى هنا أستنشق هذه الرائحة وأرى الخيول.

ضرب نفسه ضربة على بطنه الضخم. أعتقد أنه لرجل مثلى بهذا الجسم المشوه والمنفر تُعتبر مشاهدة الخيول نوعًا من المواساة، تجعلنا نثق في الطبيعة. بالمناسبة، هل يوحى إليك اسم هنرى أليدج بشيء؟

شعر فرمينو من جديد بالمفاجأة. هزّ رأسه خفيفًا في شبه الظلام وفضّل أن لا يجيب.

قال المحامى: خسارة، لقد كان رفيقه، صحفي كتب كتابًا بعنوان "القضية" يروى لنا كيف اتهمته القوات الفرنسية في عام ١٩٥٧ بأنه شيوعي متعاطف مع الجزائر، هو أوروبي فرنسي، تمّ تعذيبه في الجزائر لكي يفشى أسماء أعضاء المقاومة الآخرين. الملخص: تم تعذيب لوندون من الشيوعيين، وعذّب أليدج لأنه كان شيوعيًّا. الشيء الذي يؤكّد لنا أن العذاب يمكن أن يأتي من كل مكان، وهذه هي المشكلة الحقيقية.

فرمينو لم يجب. صهل حصان فجأة بصرخة كانت مقلقة

fb/mashro3pdf

لفرمينو.

همس المحامى: كان حارس أليدج يُدعى شاربونير ويعمل قائدًا لقوات الصاعقة، وكان هو الذي يعطيه الشحنات الكهربية على خصيتيه، لدىّ هوس تحديد أسماء المعذّبين، مَن يدرى لماذا؟ لدىّ انطباع بأن تحديد أسماء المعذّبين له معنى، هل تدرى لماذا؟ لأن التعذيب مسؤولية فردية، والخضوع لنظام أعلى غير محتمَل، كثير من الناس اختبَؤوا خلف هذا التبرير البائس جاعلين منه لأنفسهم ستارًا قانونيًّا، أتفهم؟ يختبئون خلف القاعدة الأساسية.

تنهد بعمق وردّ عليه حصان ضاربًا بقدميه بضجر: منذ بضع سنوات، عندما كنت شابًّا مليئًا بالحماسة وكنت أعتقد أن الكتابة تخدم في شيء، وضعت في رأسي أن أكتب عن التعذيب. كنت عائدًا من جنيف، في ذلك الوقت كانت البرتغال بلدًا دكتاتوريًّا يحكمه البوليس السياسي الذي كان يعرف جيدًا كيف ينتزع الاعترافات من الناس، لا أعرف أن كنت واضحًا. كان لدىّ تراث قومىّ لا بد أن أدرسه، كل شيء متاح، التحقيقات البرتغالية، وبدأت أتردد على أرشيفات تورّى دو تومبو. أؤكّد لك أن تلك الوسائل المنتقاة للحراس الذين عذبوا الناس على مدى قرون في بلدنا تحوز على اهتمام خاصّ جدًّا مهتمّة بالبنية العضلية للجسم البشرى التي قد درسها فيزاليو النبيل، وإلى ردود الأفعال التي يمكن أن تستجيب بها

fb/mashro3pdf

الأعصاب الرئيسية الموجودة في أعضائنا، وفى أعضائنا التناسلية تحديدا، وهى معرفة تشريحية متقَنة، تمّت كلها باسم القاعدة الوحيدة التي لا يوجد مثلها، القاعدة المطلقة، أتفهم؟

سأل فرمينو: ماذا تعنى؟

أجاب المحامى: الله، كان هؤلاء المجتهدون والحراس المنتقَون يعملون من أجل الله، الذي تلقّوا منه النظم العليا، في الواقع المفهوم هو نفسه: أنا لست مسئولا، فأنا ضابط صف بسيط، وأمرني به قائدي، أنا لست مسئولا، فأنا قائد متواضع وأمرني به اللواء، أو الدولة أو الله، وهو شيء لا يقاوم.

سأل فرمينو: وبعد هذا لم تكتب شيئًا؟

– تركت هذا؟

سأل فرمينو: لماذا؟ لا تؤاخذني إن كنت أسألك عن هذا.

أجاب السيد فرناندو: من يدرى؟ ربما كان يبدو لا جدوى من أن أكتب ضد النظام المطلق، ثم إنى كنت قد قرأت مقالاً عن التعذيب لشخص ألمانى يملؤه الغرور، وهذا جعلني أختار.

قال فرمينو: لا تؤاخذني على سؤالي، ولكن سيادتك تقرأ للألمان فقط؟

ردّ السيد فرناندو: بالأخصّ، ربما هى الثقافة التي انتمى

fb/mashro3pdf

إليها حقًّا، حتى لو كنت كبرت في البرتغال، هي اللغة الأولى التي تعلمت أن أعبّر بها عن نفسي. مؤلّف ذلك المقال يُدعى ألكسندر ميتشيجان. طبيب نفسيّ، للأسف بدأ الأطباء النفسيون أيضًا ينشغلون بهذا. أتعلم؟ لقد أخرج صورة صليب المسيح مؤكّدا أنها صورة تم توفيقها مع ثقافتنا واستخدامها بطريقة ما لتأكيد أن الموت في حدّ ذاته لا يمثّل عقابًا كافيًا في اللاوعي... فان النهاية العملية هي: أن لا نخدع أنفسنا، فالعذاب لن يختفي أبدًا، لأننا لا نستطيع قمع دوافع الإنسان التدميرية. لكي نقول بشكل أكثر إيجازًا، علينا أن نخضع لأن الإنسان شرير. هذا كل شيء، هذا الشخص كان يريد أن يقول بكل نظريات فرويد، الإنسان شرير. ولهذا اخترت اختيارًا آخر.

سأل فرمينو: ماذا تعنى؟

أجاب دون فرناندو: الوصول إلى الجانب العملي، إنه شيء أكثر وضاعة: الذهاب إلى المحكمة للدفاع عن الذين يعانون من معاملات مثل تلك. لا أدرى إن كنت أقول لك إن كتابة مقال عن الزراعة أو شق قطعة أرض بالفأس سيكون أكثر فائدة، ولكنى اخترت شق الأرض بالفأس مثل الفلاح. تحدّث عن التواضع ولكن لا تصدقني كثيرًا، فإن موقفي في الأصل هو موقف كبرياء.

سال فرمينو: لماذا تروى لي كل هذا؟

fb/mashro3pdf

همهم المحامى: لقد تمّ تعذيب داماشينو مونتيرو، هناك علامات حرق سجائر على جسده كله.

سأل فرمينو: كيف عرفت؟

قال السيد فرناندو: لقد طلبتُ تشريحًا آخر للجثة، لم يأتِ أول تشريح بهذه التفاصيل التافهة.

تنفس بعمق بقرقرة كأن به أزمة، قال: فلنخرج، أنا في حاجة إلى هواء. ولكن هذا سوف أكتبه في جريدتك وطبعًا المصدر مجهول، وسيادتك ستخبر به الر أي العامّ فورًا، سنتحدث حتمًا في خلال يومين أو ثلاثة عمّا يُسمَّى سرّ التحقيقات والاستجوابات التي تتمّ الآن، ولكنْ شيء في كل مرة.

خرجا إلى مخزن الحبوب، رفع السيد فرناندو رأسه ونظر إلى قبة السماء. قال: ملايين النجوم، ملايين السحب، اللعنة! ملايين السحب، ونحن هنا نشغل أنفسنا بالأقطاب الكهربائية التي يُدخِلونها في أعضائنا التناسلية!

fb/mashro3pdf

(١٧)

كانت دونا روزا تتناول القهوة وتجلس على أريكة صغيرة في الصالة، الساعة العاشرة صباحًا، فرمينو كان يعلم أن مظهره ناعس على الرغم من الحمّام الدافئ الذي أخذه منذ ربع ساعة والذي حاول أن يوقظ به نفسه.

– قالت دونا روزا بودّ: يا بني العزيز، تعالَ لتتناول القهوة معي فأنا لا أفلح في رؤيتك.

فرمينو يبرّر: كنت بالأمس في حديقة النباتات وأمضيت بها اليوم كله.

سألت دونا روزا: وأول أمس؟

أجاب فرمينو: في المتحف ثم في السينما، كان يُعرض بها فيلم لم أستطع رؤيته في لشبونة.

ألحّت دونا روزا ثانية بابتسامة: وأول أول أمس أيضًا؟

قال فرمينو: عند المحامى، اصطحبني في المساء إلى عشاء في الريف في مزرعة يملكها.

أوضحت دونا روزا: لم تعُد ملكه.

fb/mashro3pdf

ردّ فرمينو: قال لي هذا.

سألت دونا روزا: وما الشيء المشوّق الذي وجدته في حديقة النباتات؟ فأنا لم أذهب هناك قط، فأنا أعيش بين أربعة حوائط.

أجاب فرمينو: شجرة الصمغ، وهى شجرة استوائية ضخمة يوجد منها في البرتغال نماذج قليلة جدًّا. يبدو أن سالبرت قد زرعها في القرن التاسع عشر.

صاحت دونا روزا: يا بنى، أنت تعرف أشياء كثيرة هكذا، لكى تمارس مهنتك هذه يلزمك ثقافة، احكِ لى مَن هذا الرجل ذو الاسم الأجنبي الذي زرع الشجرة؟

ردّ فرمينو: لا أعرف عنه الكثير، لقد قرأت في كتاب الإرشادات أنه كان فرنسيًّا وصل إلى مدينة أوبرتو مع غزوات نابليون، أعتقد انه كان ضابطًا في الجيش الفرنسي ولديه هواية النباتات وهو الذي أسّس حديقة النباتات في أوبرتو.

قالت دونا روزا: الفرنسيون مثقفون، لقد قاموا بثورة الجمهورية قبلنا بكثير.

ردّ فرمينو: لقد قامت الجمهورية لدينا عام ١٩١٠. كل بلد له تاريخه.

قالت دونا روزا: بالأمس كنت أشاهد برنامجًا عن النظام

fb/mashro3pdf

الملكي في شمال أوروبا، هؤلاء حقًّا أناس مجتهدون، لهم نظام مختلف تمامًا.

قال فرمينو: لقد قاموا أيضًا بالمقاومة ضد النازية.

عملت دونا روزا صيحة تعجب طفيفة.

همست: هذا لم أكن أعرفه، إنهم حقًّا أناس مجتهدون.

انتهى فرمينو من احتساء القهوة، نهض واستأذن قائلاً إنه يجب أن يذهب لشراء الجرائد.

وبتعبير مبتهج أشارت دونا روزا إلى حزمة جرائد على الأريكة وقالت: كلها هنا، جرائد اليوم، ذهبت فرانشيسكا لشرائها الساعة الثامنة. إنها فضيحة مروّعة تتحدث عنها الصحافة كلها، السيد تيتانيو لديه مشكلة فظيعة يجب حلها. إن البوليس لم يكن يستطيع الدخول في هذه الأماكن لولا وجودكم أنتم الصحفيين، توجد الصحافة لحسن الحظّ.

أجاب فرمينو: إننا نفعل كل ما نستطيع بكل تواضع.

أخبرته دونا روزا: المحامى اتصل الساعة التاسعة، يحتاج أن يتحدث معك، لقد كلّفنى بذلك، لكنى أرى أنه من الأفضل أن تتحدثا معًا.

أجاب فرمينو: سأذهب لأقابله فورًا.

fb/mashro3pdf

أوضحت دونا روزا: يبدو لي أن الوقت غير مناسب؛ اليوم لا يستطيع المحامى أن يقابلك، فإن لديه إحدى أزماته.

سأل فرمينو: أي أزمة؟

قالت دونا روزا بلطف: كل واحد منا يمكن أن يكون له أزماته، ولهذا فهو ليس الوقت المناسب لتذهب وتزعجه، ولكن لا تشغل بالك؛ قال إنه سوف يتصل بك ثانية ويعطيك كل التوجيهات، فقط عليك أن تتحلى بالصبر.

قال فرمينو: نعم، لدى الصبر، ولكن يروق لي أن أتمشى قليلا حتى كافيه سنترال.

قالت دونا روزا بحب: فهمت. إنك محتاج إلى فنجان قهوة جميل وقوى، هذه القهوة التي تعدّها فرانشيسكا في الصباح مليئة بالشعير، أنت محتاج إلى أسبريسّو جميل، سأجعلهم يأتونك به الآن، فلتجلس هنا، وفى هذه الأثناء تقرأ الأخبار على هذا المقهى الليلي، ثم نتقابل بعد قليل. سيعرض التليفزيون برنامجًا عن الطبيعة، لا أدرى إن كنت قد شاهدته من قبل، هو برنامج يجذبني، يقدّمه عالِم ظريف من جامعة لشبونة، يتحدث البرنامج اليوم عن حرباء ألجارفى، يبدو أن ألجارفى هو واحد من الأماكنِ القليلة في أوروبا استطاعت الحرباء أن تتعايش فيه، شاهدتُ هذا على شاشة التليفزيون.

انطلق فرمينو كأنه يقول نكتة: إن الحرباوات في رأيي

fb/mashro3pdf

تستطيع أن تعايش في أي مكان، يكفيها أن تغيّر لونها.

قالت دونا روزا بضحكة بسيطة: تمامًا ما كنت سأقوله، سيادتك يجب أن تفهم، هذا النوع من الحرباوات أفضل منى، بالمهنة التي تمارسها، فأنا محبوسة بين أربعة جدران، ولكن صدقنى أنا أيضًا أعرف بعض الحرباوات، خصوصًا في هذه المدينة.

كانت ترى على شاشة التليفزيون مستنقعًا له شاطئ أبيض وكثبان رملية غير منتظمة. فكر فرمينو في تافيرا، وربما كانت في المنطقة المحيطة. ثم رأي كوخًا على الشاطئ الذي كان مطعمًا أيضًا، به مناضد قليلة من البلاستيك، وأشخاص يأكلون قواقع البحر، أشخاص شُقر ومظهرهم أجنبي. ركّزت الكاميرا على فتاة وجهها مليء بالنمش وسألت عن رأيها في ذلك المكان. أجابت الفتاة باللغة الإنجليزية وظهرت الترجمة على الشاشة. كانت تقول إن هذا الشاطئ جنة حقيقية لشخص مثلها يأتي من النرويج. كان السمك رائعًا، وغذاء من فواكه البحر يكلّف ثمن فنجان قهوة في النرويج، ولكن السبب الأساسي الذي يجعلها تأكل في هذا الكوخ هو فرناندو بسوا، وهى تشير بسّبابتها إلى فرع من التعريشة التي تغطّى المطعم، تحول المنظر إلى الفرع حيث يُرى أولاً برص كبير ثابت وعيونه تتحرك بسرعة جدًّا ويبدو كأنه جزء من الشجرة. كان هذا واحدًا من الحرباوات التي تعيش في

fb/mashro3pdf

ألجارفى. سأل المذيع التليفزيونى الفتاة النرويجية لماذا كان يسمى هذا الحيوان فرناندو بسوا، أجابت هي أنها لم تقرأ شيئًا لذلك الشاعر ولكنها كانت تعرف إنه رجل ذو ألف قناع وأنه يتقنع بكل وسائل التنكّر مثل الحرباء، ولهذا فإن صاحب المطعم كتبه على اللافتة. تحولت الكاميرا على لافتة كُتبت باليد توجد فوق الكوخ مكتوب عليها "حرباء بسوا".

رنّ الهاتف في تلك اللحظة وأشارت دونا روزا إلى فرمينو ليجيب.

قال المحامى: لدى شيئان أقولهما لك، هل معك ورقة وقلم؟

أجاب فرمينو: معي مفكرتي.

قال المحامى: إنهما يتعارضان، فلتأخذ ملحوظات لأنه شيء هامّ. في أول تفسير أنكروا أنهم حملوا داماشينو إلىَ قسم البوليس! وللأسف الشاهد كذّبهم، لأنه –خذ في بالك– تبعهم بسيارته. هم يقولون إنهم أنزلوه في الطريق بينما التورس الذي تبعهم بسيارته من بعيد حتى أوبرتو يؤكّد أنه ر أي بعينيه أن داماشينو تمّ الزج به إلى قسم البوليس باللكمات والصفعات. التناقض الثاني: كان عليهم أن يُجمِعوا على أنهم حملوا مونتيرو إلى قسم البوليس فقط للتفتيش، ولكن لأنهم احتجزوه لمدة وجيزة وهى وقت التفتيش (نصف ساعة على الأكثر). إذا

fb/mashro3pdf

افترضنا إذن أنهم دخلوا نحو منتصف الليل فـإن مونتيرو عليه أن يخرج من قسم البوليس على قدميه في الثانية عشرة والنصف مساءً. هل تتابعنى؟

أكد فرمينو: أتابعك.

أوضح المحامى: إذن بقى مونتيرو في قسم البوليس على الأقل حتى الثانية، بعد هذا فكّر تورس أنه من الأفضل العودة إلى المنزل وذهب. وفى هذه النقطة تختلط الأشياء. مثلاً الحارس الذي كان عليه أن يدوّن أسماء من يدخلون قسم البوليس كان ينام في ذلك الوقت مثل الطفل، وجنته مُسنَده على المكتب والقهوةُ، ذهبَ الجرللو فردى ليجهزها في المطبخ بمساعدة الضابط، أشياء من هذا القبيل، حتى أعلنوا تفسيرًا منطقيًّا بعض الشيء، وهو التفسير النهائي والذي سيستعين به الجرللو فردى في القضية، ولكن لست أنا الذي سيقول لك هذا التفسير.

سأل فرمينو: ومن سيقوله لى؟

أجاب المحامى: سيقوله لك تيتانيو سيلفا، أنا متأكد أن هذا هو التفسير الأخير ومتأكد أنه الذي ستستخدمه في القضية، ولكن هذه الشهادة من الأفضل أن تسمعها بصوته هو.

سمع فرمينو في سماعة التليفون نوعًا من الحشرجة وبعض نوبات السعال.

fb/mashro3pdf

شرح المحامى بصفير في صوته: عندي نوبة أزمة، أزماتي أسبابها نفسية، الصراصير تحمل تحت أجنحتها غبارًا يثير لدىّ الأزمة.

سأل فرمينو: وماذا يجب أن أفعل؟

كرّر المحامى: كنت قد وعدتك أن أتحدث معك عن التقنية المهنية، اعتبر أن هذه المكالمة هي أول درس عملي. وفى هذا الوقت سيادتك ستُبرِز جيدًا في جريدتك تناقضات هؤلاء السادة، وشيء جيد أن يكوّن لدي الرأي العامُّ فكرة عن هذا، ولأنك ستُجرِى حوارًا صحفيًّا مع الجرللو فردى بخصوص التفسير الأخير، هو يعتقد بالتأكيد أنه عندما يمنحك حوارًا صحفيًّا يبحث عن حلّ، ولكننا نحن أيضًا نبحث عن حلّ، كل واحد يلعب لعبته، مثلما في لعبة المليجان، أتفهم؟

fb/mashro3pdf

(١٨)

نحن في محلّ آيس كريم "انتارتيكو" الموجود عند مصبّ نهر الدورو، أمام نقطة الالتقاء الرائعة للبحر مع النهر الذي يشقّ مدينة أوبرتو. وافق أن يقابلنا شخص تحت الأضواء الكاشفة للر أي العامّ، وتقع عليه -طبقًا لبعض الشهود- مسؤوليات خطيرة في مقتل داماشينو مونتيرو، هو ضابط الصفّ تيتانيو سيلفا في الحرس الوطني المحلّى.

ولديكم مختصَر عن سيرته الذاتية: خمسة وخمسون عامًا، من مدينة فيلجويرياس، من عائله متواضعة، تَخرَّج في مدرسة مافرا العسكرية، حارب في أنجولا من ١٩٧٠ حتى ١٩٧٣، تمّ تكريمه للخدمات التي أدّاها في إفريقيا، يعمل ضابط صفّ في دائرة بوليس الحرس الوطني في أوبرتو منذ أكثر من عشر سنوات.

- أتؤكد يا سيادة الضابط ملخَّص سيرتك الذاتية الذي ذكرناه؟ سيادتك بطل الحرب في إفريقيا؟

- أنا لا أعتبر نفسي بطلاً، لقد قمت فقط بواجبي من أجل وطني ومن أجل علمي. في الواقع عندما ذهبت إلى أنجولا لم أكن اعرف حتى جغرافيتها. لنقُل إنى اكتسبت الوعي

fb/mashro3pdf

الوطني في أرضنا في ما وراء البحار.

– هل من الممكن أن تحدد لنا مفهومك عن الوعي الوطني؟

– بمعنى أنني أدركت أنني أحارب ضد من يريدون هدم حضارتنا.

– ماذا تقصد بكلمة حضارة؟

– البرتغالية، لأن حضارتنا هي البرتغالية.

– وبكلمة من يريدون هدم الحضارة؟

– الزنوج الذين كانوا يطلقون النار علينا، كما كانوا يقولون لهم هؤلاء مثل أميلكار كابرال. لقد اكتسبت وعيًا بالدفاع عن تلك التي كانت ملكنا منذ أزمان بعيدة، عندما لم يكن في أنجولا لا ثقافة ولا ديانة مسيحية: أشياء حملناها نحن إلى هناك.

– ثم تدخل إلى القارة بفخامتك وتعمل في بوليس أوبرتو؟

– ليس بالضبط، لقد أسندوا إليّ أولاً عملا بضاحية لشبونة، وبما أننا كنّا قد خسرنا في الحرب، فكان علينا أن ننشغل بالشعوب المحتلّة الآتية من إفريقيا، العائدين.

fb/mashro3pdf

– نحن من؟ من الذي خسر الحرب؟

– نحن البرتغال.

– كيف كانت تسير الأمور مع هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يعودون من المستعمرات السابقة؟

– كانت هناك مشكلات كثيرة، لأنهم كانوا سيطمحون إلى السكنى في فنادق كبيرة. قاموا بتنظيم مظاهرات وهم يقذفون البوليس بالحجارة، وبدلاً من أن يبقوا ليدافعوا عن أنجولا بالسلاح في يدهم كانوا يأتون إلى لشبونة ويطمحون في الحياة الفاخرة.

– وكيف كانت تتقدم مهنتك؟

– استدعوني إلى أوبرتو بعد هذا، ولكنهم أسندوا إليّ فيلا نوفا، وكنت بها من قبل.

– وماذا عمّا يقال من أنك عقدت صداقات في جايا؟

– ماذا تقصد؟

– سمعنا عن صداقات مع شركات تصدير واستيراد.

– يبدو لي أنك تلمّح. إذا كنت تريد توجيه اتهامات محدَّده فلتقلها لي بصراحة، وأنا سأقاضيك، لأنكم أنتم الصحفيين تستحقّون هذا، أن يتمّ اقتيادكم إلى المحكمة.

fb/mashro3pdf

– لا، لا سيدي الضابط، لا تتعصب كثيرًا، فأنا أنقل إليك فقط بعض الشائعات التي تُقال. عمومًا يُستنتج أنك كنت تعرف شركه ستونس أوف بورتوجال أم تظنّ أن هذا أيضًا تلميح؟ السؤال هو: سيادتك تعرف شركه ستونس أوف بورتوجال؟

– أعرفها كما أعرف كل الشركات المجاورة في أوبرتو، وكنت أعرف أنها في حاجه إلى حماية.

– لماذا؟ أتستنتج أنها كانت مهدَّدة؟

– نعم، وحتى لو كان صاحب الشركة لم يشكُ من هذا بصراحة. عمومًا كنا نعرف أنها في حاجة إلى حراسة لأنها تستورد موادَّ على تكنولوجيا عالية، أشياء دقيقة، بضاعة بملايين.

– قالوا لنا إنه بالحاويات ذات التكنولوجيا العالية كانت تصل في الخفاء بضاعة أخرى. هل سيادتك على علم بذلك؟

– لا أدرى ماذا تريد أن تقول.

– مخدّرات، هيروين نقى.

– كنا سنعلم لو كان الأمر هكذا، لأن لدينا مخبرين جيّدين.

– إذن، ألا يبدو لك أنه كانت هناك مخدرات تصل من

fb/mashro3pdf

هونج كونج في حاويات شركة ستونس أوف بورتوجال؟

– لا أستنتج هذا. مدينتنا ليست بحاجة إلى المخدّرات، أنها مدينة صحيحة. تعجبنا الكرشة بالأخص.

– ولكننا قرأنا في الصحافة القومية أنه يوجد هنا مكان في أوبرتو حيث تروَّج المخدّرات، ويبدو أن سيادتك صاحب هذا المكان.

– إنه تخمين أرفضه بشدة، إذا كنت تقصد الـ"بوتشينيز" أؤكد لك أنه مكان يرتاده أشخاص محترمون، وهو ليس ملكي، فهو ملك زوجة أخي كما هو مدوَّن في البلدية.

– ولكن يقولون إن سيادتك تعمل به.

– أحيانًا أذهب إلى هناك لأساعد في الحسابات، أنا ماهر في الحسابات وحصلت على دورة في الإدارة.

– ولكن إذا عدنا إلى شركة ستونس أوف بورتوجال، يتضح أن سيادتك كنت في دورية في تلك الأنحاء مع فرقتك العسكرية، هل يمكن أن تحكى لنا؟

– وصلنا إلى الغموض. لا أتذكر الساعة بالتحديد، ولكن ربما كان منتصف الليل تقريبًا، الأمر يتعلق فقط بعين المكان.

– لماذا هذا المكان نفسه؟

fb/mashro3pdf

– لأنه –كما قلت لك– شركة ستونس أوف بورتوجال كانت تستورد أشياء ذات تكنولوجيا عالية، الشيء الذي يغرى اللصوص، وواجبنا هو حمايتها.

– إذن؟

– وقفنا السيارات خارج البوابة ودخلنا. كان نور المكتب مُضاءً. كنت أنا أول من دخل ووجدت داماشينو مونتيرو في حالة تلبُّس.

– أوضح أفضل.

– كان واقفًا أمام المكتب وكان بيده بعض الموادّ التكنولوجية التي كان قد انتزعها.

– مواد تكنولوجية فقط؟

– مواد تكنولوجية فقط.

– ألم يكن في يديه أيضًا أظرف بها بودرة؟

– أنا رجل بوليس، أحد سلطات الدولة، أتريد أن تضع كلامي محلّ شكّ؟

– من فضلك ماذا حدث بعد ذلك؟

– قبضنا فورًا على الهدف، الذي اتضح بعد هذا أنه مونتيرو. جعلناه يصعد إلى السيارة وقدناه إلى قسم البوليس.

fb/mashro3pdf

– في هذه النقطة أول تناقض، في ما يتضح من أول شهادة لكم أعلنتم أنكم أنزلتموه في الطريق.

– من قال لك هذا؟

– فلنقل إن النيابة مليئة بالجواسيس، أحياناً من يكتب على الآلة الكاتبة، أحياناً عاملة التليفون، ربما عاملة نظافة بسيطة، ولكنها تفاصيل تافهة، المهمّ أنكم أكّدتم في أول تحقيق أمام القاضي أن داماشينو مونتيرو لم يؤخذ إلى قسم البوليس ولكنكم أنزلتموه في الطريق.

– هذا غموض استدركت أن أوضّحه بنفسي، كان هذا سوء التفاهم لدى زميلي، الضابط فرُّو.

– هل من الممكن أن تشرح لنا هذا الغموض بطريقة أفضل؟

– لدينا سيارتان في فرقتنا. وضعنا مونتيرو في سيارتي، والسيارة الثانية هي التي يقودها زميلي والتي كان الضابط فرو يستقلها، كان يتبعنا، توقفنا عند نقطة معينة وتَخيّل الضابط أنه رأي مونتيرو ينزل ولكنه أخطأ. أتعلم أن الضابط فرُّو مجنَّد مستجد شابّ وينام بسهولة في السيارة؟ بكل بساطة إنه قد أخطأ.

– ولكن سيادتك لم تكذّب الضابط فرُّو أمام القاضي!

fb/mashro3pdf

– كذّبته بعد هذا عندما قرأت شهادته جيدًا.

– لم تكذّبه لأنه الشاهد، لقد أعلن السيد تورس أنه قد تبعكم بسيارته وأنه ر أي بعينه صديقه داماشينو مونتيرو وهو يدخل قسم البوليس على صوت اللكمات والركلات.

– على صوت اللكمات والركلات؟!

– هذا ما يؤكّده الشاهد.

– سيدي العزيز، نحن لا نتعامل مع الناس بالركلات واللكمات! اكتب هذا جيدًا في جريدتك، نحن نحترم المواطنين.

– لنعتبر أن الحرس الوطني منضبط تمامًا، ولكن هل يمكن أن تحكى لنا أحداث تلك الليلة؟

– شيء بسيط، صعدنا إلى الطابق الأعلى حيث توجد المكاتب وغرفة الأمن، وبدأنا أول استجواب للمجرم. كان يبدو يائسًا وبدأ يبكى.

– هل مسستموه؟

– أوضح أفضل.

– هل مسستموه جسمانيًّا؟

– نحن لا نعذب أحدًا سيدي العزيز، لأننا نحترم القانون والدستور لو كان هذا يهمّك. يمكن أن أقول لسيادتك إن

fb/mashro3pdf

مونتيرو كان يائسا، وبدأ يبكى ونحن حاولنا أن نواسيه.

– حاولتم أن تواسوه؟

– كان مسكينًا، بائسًا، يناجى أمه ويقول إن أباه مدمن كحوليات، في تلك اللحظة كنا هناك أنا والضابط كوستا فقط، لأن الضابط الآخر ذهب إلى الحمام، وهنا طلبت من الضابط كوستا أن ينزل إلى المطبخ ليُعِدّ له فنجان قهوة، لأن ذلك الفتى كان يثير الشفقة، صدّقنى، كان حقًّا يثير الشفقة. نزل الضابط كوستا، وبعد دقيقتين ناداني وقال لي: "سيدي الضابط، انزل لأن ماكينة القهوة لا تعمل جيدًا، القهوة لا تنفذ منها". ونزلت هكذا أنا أيضًا.

– وتركتم داماشينو مونتيرو بمفرده؟

– للأسف، هذا هو خطؤنا الوحيد، لأننا نتحمل كل مسؤولية هذا الحدث، تركنا ذلك الفتى البائس بمفرده لبرهة لكي نُعِدّ له القهوة، وهكذا حدثت المأساة.

– أية مأساة؟ هل يمكن أن توضح أفضل؟

– سمعنا طلقًا ناريًّا وأسرعنا إلى فوق وكان مونتيرو راقدًا على الأرض وقد فارق الحياة. كان قد تمكّن من مسدس تركه الضابط الآخر سهوًا على المكتب وأطلق عيارًا على صدغه.

fb/mashro3pdf

– من قريب؟

– عندما يطلق أحد عيارًا ناريًّا على صدغه يطلق على نفسه من قريب، ألا ترى هذا؟

– بالتأكيد، كان وحده ليتخذ تحديدًا تقنيًا، واضح أن المنتحر يطلق على نفسه النار من قريب. ثم؟

– ثم وجدنا أنفسنا مع تلك الجثة الملقاة على الأرض، وشيء مثل هذا –كما تعلم– يثير الهلع أيضًا لرجال البوليس المعتادين بالأكثر على مآسي العالم، ومن ناحية أخرى لم أكن أستطيع التحمّل؛ كنت في العمل من الثامنة صباحًا وكان حتمًا عليّ أن أعود إلى منزلي وأن أُحقن بعقّار سوميجرينى.

– سوميجرينى؟

– إنه عقّار أمريكي، وصل إلى السوق منذ وقت وجيز، وهو العقّار الوحيد الذي يمكن أن يريح عندما يكون الصداع النصفي شديدًا. لقد أرفقت بأوراقي شهادة طبية عن نوبات الصداع النصفي التي تنتابني منذ أن انفجر بالقرب منى لغم في أنجولا وتسبب في فقداني طبلة الأذن. وتركت هكذا ساحة الأحداث، وهو الذنب الوحيد، إذا سمّيناه ذنبًا، والذي يجب بسببه أن أمثل أمام القضاء، تركت الساحة أنا الذي لم أترك الساحة قط في أثناء المعركة في إفريقيا.

– وهكذا تركت جثة داماشينو مونتيرو على الأرض؟

fb/mashro3pdf

– هكذا سارت الأمور، ولكنى لا أعلم ماذا فعل زملائي.

– من كانوا؟

– لا أريد ذكر أسماء تمّ ذكرها أمام قاضى التحقيقات، وستُعرف في القضية.

– وجسد داماشينو مونتيرو؟

– تستطيع أن تفهم سيادتك اضطراب وأزمة ضابطين مسكينين وجدا نفسيهما أمام جثة ملقاة على الأرض في قسم البوليس الذي يعملان فيه. لا ألتمس لهما العذر، ولكن أستطيع أن أفهم أنهما حملاه بعيدًا.

– ولكن هذا إخفاء للجثة.

– بالتأكيد، لديك حقّ، إخفاء للجثة، ولكن كما قلت لك، سيادتك تستطيع أن تتفهم أزمة ضابطين بسيطين وجدا نفسيهما في موقف مثل هذا.

– لقد عُثر على جثة داماشينو مونتيرو بلا رأس.

– اليوم كل شيء يمكن أن يحدث في الحدائق.

– تريد أن تقول إنه عندما تم نقل جثة داماشينو مونتيرو بعيدًا عن قسم البوليس كان الرأس على عنقه؟

fb/mashro3pdf

– هذا شيء ستوضحه القضية. وفى ما يتعلق بى، أستطيع أن أقول لك إني سأقاتل من أجل ضباطي. أؤكد لك أن ضباطي ليسوا قاطعي رؤوس.

– تريد أن تقول إنه في رأيك تم قطع رأس داماشينو مونتيرو في الحديقة؟

– هناك كثير من الأشخاص الغرباء يجولون في حدائق المدينة.

– هذا الفعل صعب في حديقة، يرى الطب الشرعي أن قطع الرأس تم بطريقة متقنة، كأنه تم بسكين كهربائي، والسكاكين الكهربائية تحتاج إلى فيشة تيار كهربائي.

– بالنسبة إلى هذا، هناك سكاكين جزّار تقطع أفضل من السكين الكهربي.

– عمومًا يُستنتج أن جسد داماشينو مونتيرو به آثار تعذيب. كانت به حروق سيجارة على الصدر.

– سيدي العزيز، نحن لا ندخّن، اكتب هذا في جريدتك، لا أحد يدخن في مكاتبنا، إنه نظام قمت بفرضه، وجعلتهم أيضًا يضعون لافتات المنع على الحوائط. ومن ناحية أخرى هل رأيت ماذا قررت الحكومة أن تكتب على علب السجائر؟ أن استخدام التبغ يسبب أضرارًا خطيرة على الصحّة.

fb/mashro3pdf

(١٩)

– أهنّئك أيها الشابّ، لقد صنعت عملاً جميلاً.

كان المحامى غائرا على الأريكة تحت المكتبة، كانت تفوح ذلك الصباح في الغرفة رائحة اللافندر والديودورانت.

قال السيد فرناندو: شمّ، كم هي رائحة عفنة! لقد مرت حارسة البوابة، هي لا تتحمل رائحة السيجار وأنا لا أتحمل رائحة عطرها.

– لاحظ فرمينو أن الأوراق على المنضدة الصغيرة الخضراء كانت كلها مكشوفة ومصفوفة، سأل: هل أفلحت في لعبة الكوتشينة المنفردة؟

أجاب المحامى: أفلحت فيها هذا الصباح، يحدث أحيانًا.

أوضح فرمينو: تيتانيو هذا شخص منافق، الأشياء التي يقولها، يا له من شخص عنيد!

سأل المحامى: هل كنت تتوقع شيئًا أفضل؟ هي نفس الأقوال التي سيمثل بها أمام القضاة وبنفس تلك الأقوال لأنه من الواضح أن تيتانيو له مستوى أسلوبي واحد فقط. إن

fb/mashro3pdf

أحداث القضية لا تُعلَن على صفحات الجرائد بينما تصرفت أنت بطريقة يعرف بها القراء كيف يتحدث الجرللو فردى، وبهذا عندي إحساس أن واجبك قد انتهى.

سأل فرمينو: انتهى حقًّا؟!

أجاب المحامى: حتى الآن على الأقل، تمّ الحصول على كل المستندات وأُغلقَ التحقيق، لا يتبقى سوى انتظار القضية التي ستنظر قريبًا، ربما قبل ما تتصور سيادتك. وليتنا تكون لدينا الفرصة لنتقابل في أثناء القضية، من يدرى؟

سأل فرمينو: أتظن أنه سيكون شيئًا سريعًا؟

أجاب المحامى: في حالات مثل هذه توجد احتمالات: الأول هو أن تؤجَّل القضية إلى أجل غير مسمًّى ويجعلوها تقع في مستنقعات البيروقراطية، بحيث ينسى الناس، قد تكون هناك فضيحة قومية أو دولية تركّز عليها الصحافة كلها. الاحتمال الثانى هو أن تُحَلّ في أقصر وقت ممكن. وأنا أعتقد أنهم سيختارون الطريقة الثانية، لأنهم يجب أن يُظهِروا أن العدالة سريعة وفعّالة، وأن هيئات الدولة، أي البوليس، واضحة وشفّافة، وديموقراطية على الأخصّ. هل فهمت الفكرة؟

ردّ فرمينو: فهمت الفكرة.

استمر المحامى: ثم إن لديك خطيبة، والخطيبات لا يمكن تركهن بمفردهن وإلاّ سيُصبَن بالاكتئاب، اذهب

fb/mashro3pdf

وعاشرها، وهذا من أفضل الأشياء التي يمكن أن تمارسها في عمرك.

نظر فرمينو بعيونه المتسائلة كأنه ينتظر تأكيدًا. شعر فرمينو بالخجل وأذعن.

– ثم هناك دراسات على الرواية البرتغالية في فترة ما بعد الحرب العالمية، أليس كذلك؟ هذا أيضًا واجب ينتظرك. مُرّ على دونا روزا وجهّز حقيبتك، إذا أسرعت فهناك قطار الساعة الثانية وثماني عشرة دقيقة، ولكنه ليس فاخرًا، يتوقف أيضًا في أسينهو، القطار التالي في الثالثة وأربع وعشرين دقيقة أو في الرابعة واثنتى عشرة دقيقة أو في السادسة وعشر دقائق، انظر سيادتك.

قال فرمينو: سيادتك تعرف المواعيد عن ظهر قلب! أظن أنك تسير دائمًا في هذا الطريق.

ردّ المحامى: إنني منذ خمسة وعشرين عامًا لا أسافر في هذا الطريق، ولكن تعجبني مواعيد السكة الحديد، أجد فيها تشويقًا.

نهض وتَوجّه نحو إحدى المكتبات الجانبية حيث توجد كتب قديمة مجلَّدة بطريقة أنيقة. أخذ كتابًا رقيقًا مجلَّدًا بجلد ثمين وأركانه مغطاة بالفضة ومدّه إلى فرمينو. على الصفحة الأولى من الغلاف على صفحة من الجلد الرقيق يوجد اسم

fb/mashro3pdf

المجلَّد مدموغا وتاريخ: "أوفيشينا سان بايو، بورتو ١٩٥٦". تصفحه فرمينو وغلاف المجلَّد الأصلي الذي احتفظ به. مجلَّد الكتاب كان من الكرتون الأصفر الباهت الرخيص ويقول بالفرنسية والألمانية والإيطالية: "مواعيد (السكك الحديدية) السويسرية". فحصه فرمينو بسرعة ونظر إلى المحامى بطريقة تساؤلية.

قال السيد فرناندو: عندما كنت أدرس في جينيف، منذ سنوات عديدة، اشتريت جدول المواعيد هذا، كانت طبعة تذكارية للسكك الحديدية السويسرية. السكك الحديدية السويسرية بها انضباط سويسري تمامًا، ولكن الشيء الجميل هو أنهم يعتبرون زيورخ مركز العالم، افتح الصفحة رقم ٤ على سبيل المثال، بعد إعلانات الفنادق والساعات.

بحث فرمينو عن الصفحة رقم ٤، قال: توجد خريطة أوروبا.

أضاف السيد فرناندو: مع كل رحلات القطارات المشار إليها بأرقام مسلسلة، وكل رقم تصاعدي يشير إلى خطوط كل بلد في أوروبا والصفحة الخاصة بها. يمكن الوصول إلى أوروبا كلها من زيورخ والسكك الحديدية السويسرية ترشدك إلى كل مواعيد القطارات المتزامنة. مثلاً هل ترغب في الذهاب إلى بودابست؟ افتح الصفحة رقم ١٦.

fb/mashro3pdf

بحث فرمينو عن صفحة رقم ١٦.

قال المحامى: القطار المتجه إلى فيينا يُقلِع من زيورخ في التاسعة والربع من الرصيف ٤، مضبوط؟ المقابل المتجه إلى بودابست الأفضل، الذي يحمل علامة النجمة، يقلع في العاشرة إلاّ الربع لأنه يتيح لك أن تستقلّ القطار القادم من فيينا. جدول المواعيد يشير لك إلى خدمات القطار، في هذه الحالة أسرّة في العربات التي تحمل أربعة أشخاص، الأكثر توفيرًا، عربات نوم مزدوجة وفردية، عربة مطعم والمشروبات الممكنة للمساء. ولكن إذا كنت تريد أن تكمل إلى براغ وهى الصفحة التالية، ليس لديك سوى أن تختار من بين الاختيارات المتنوعة التي تقدمها لك السكك الحديدية المجَريّة. هل تتحقق منها الآن؟

قال فرمينو: أتحقق منها الآن.

استمر السيد فرناندو: أتريد زيارة الشمال الكبير؟ مثلاً أوسلو مدينة الشمس في منتصف الليل وجائزة نوبل للسلام الصفحة رقم ١٩، إقلاع من زيورخ في الثانية عشرة وإحدى وعشرين دقيقة من الرصيف رقم ٧. وجدول مواعيد العبّارات الهامّة موجود في الهامش. أو... ماذا أعرف؟

الحضارة اليونانية، المسرح الروماني في سيراكوزا، حضارة البحر الأبيض المتوسط القديمة، لكي تصل إلى

fb/mashro3pdf

سيراكوزا اذهب إلى الصفحة رقم ٢١، الإقلاع من زيورخ في الحادية عشرة تمامًا، وفيها إشارة إلى كل الرحلات المتزامنة الممكنة في سكك حديد إيطاليا.

سأل فرمينو: هل قمت سيادتك بكل هذه الرحلات؟

ضحك السيد فرناندو، تناول سيجارًا ولكن لم يشعله، وأجاب: بالطبع لا، لقد اكتفيت بتخيّلها بكل بساطة ثم عدت إلى أوبرتو.

مد فرمينو الكتاب إليه، أخذه السيد فرناندو وألقى عليه نظرة خاطفة دون أن يراه وأعطاه له من جديد. قال: أنا أحفظه جيدًا، أهديه إليك.

ردّ فرمينو لأنه لا يعرف بماذا يردّ: قد تكون سيادتك مولَعًا به.

قال السيد فرناندو: أوه، لقد انتهت كل هذه القطارات، والمواعيد السويسرية المنضبطة جدًّا التي ابتلعها الزمن. أهديه إليك ذكرى لهذه الأيام التي قضيناها معًا وكذكرى عنى شخصيًّا، إذا لم يكن غرورًا منى أن أظن أنك تريد تذكارًا منى.

أجاب فرمينو: سأحتفظ به كذكرى. لا تؤاخذني سيدي المحامى، أودّ أن أذهب لأحضر شيئًا، سأعود بعد عشر دقائق.

fb/mashro3pdf

قال المحامى: اترك الباب مواربًا، لا تجعلني أنهض لأضغط على الزرّ.

عاد فرمينو ومعه لفّة تحت ذراعه، فتحها بعناية ووضع زجاجة على المنضدة.

أوضح: أودّ أن أشرب معك نخبًا قبل أن أرحل، للأسف الزجاجة ليست باردة.

لاحظ السيد فرناندو: شمبانيا، ربما كلّفك ذلك ثمنًا باهظًا.

اعترف فرمينو: لقد أضفتها على حساب الجريدة.

قال السيد فرناندو: لا تعليق.

قال فرمينو: أرى أن الجريدة يمكن أن تقدّم لنا زجاجة شمبانيا مع كل الطبعات الاستثنائية التي أصدروها بفضل مقالاتنا.

حدد السيد فرناندو وهو يتناول الأكواب: مقالاتك، مقالاتك.

همهم فرمينو: يعني...

رفعوا الأكواب علامة النخب

قال فرمينو: أرى أن تشرب في نخب النتيجة الجيدة

fb/mashro3pdf

للقضية.

شرب السيد فرناندو رشفة ولم يقُل شيئًا. قال وهو يضع الكوب: لا توهم نفسك كثيرًا أيها الشابّ، ستكون محكمة عسكرية، أراهن على هذا.

صاح فرمينو: شيء غير معقول!

ردّ المحامى بهدوء: إنها القوانين، إن الحرس الوطني هيئة عسكرية، سأحاول جاهدًا لرفض هذا المنطق، ولكن لا نعوّل على الآمال العريضة.

قال فرمينو: ولكنها جريمة قتل شنعاء وتعذيب، تجارة تهريب مريبة، فساد وليست حادثة عسكرية.

همهم المحامى: يعنى. وما اسم خطيبتك؟

ردّ فرمينو: كاترينا.

قال المحامى إنه اسم جميل. وماذا تعمل؟

قال فرمينو: حتى الآن اجتازت مسابقة للعمل في مكتبة البلدية، حاصلة على ليسانس وثائق ومكتبات، ولكنهم لم يردّوا عليها بعد.

همس المحامى: إن العمل مع الكتب عمل جيد.

ملأ فرمينو الأكواب مرة ثانية وشربا في صمت. أخذ

fb/mashro3pdf

فرمينو الكتاب المجلَّد ونهض، قال: أعتقد أنه حان الوقت لكي أنصرف.

تصافحا بسرعة.

صاح السيد فرناندو خلفه: تحياتي إلى دونا روزا.

خرج فرمينو في شارع روا داس فلورس وقد هبّت ريح منعشة، قوية بعض الشيء. كان الهواء نقيًّا جدًّا، ولاحظ أنه على أوراق شجر الدلب بدأت تظهر بقع صفراء خفيفة. كانت أولى علامات الخريف...

fb/mashro3pdf

(٢٠)

سيتذكر فرمينو فيما بعد من ذلك اليوم بالتحديد الأحاسيس الجسمانية الدقيقة والغريبة في آن واحد، كأنها مشاعر شخصٍ آخر، كأن طبقة جلدية واقية تعزله في نوع من النعاس الذى تُسَجَّل فيه معارف الأحاسيس من الوجدان ولكن العقل غير قادر على التعامل معها بالمنطق وتظل تتقلب مثل حالات نفسية غامضة: ذلك الصباح الضبابي في نهاية ديسمبر عندما نزل وهو يحسّ بالبرد في محطة أوبرتو، القطارات المحلّية التي تُنزِل أول المترنحين ذوى الوجوه المليئة بالنوم والرحلة في التاكسي عبر تلك المدينة الرطبة ذات المباني المكفهرّة التي بدت له كئيبة، ثم الوصول إلى مبنى العدالة والشكليات البيروقراطية لكي يدخل، اعتراضات الشرطي الغبية عند باب الدخول والذي قام بتفتيشه والذي لم يكن يريد أن يتركه يدخل بمسجّل الصوت، كارنيه الصحفيين الذي اقتنعوا به في النهاية. الدخول في تلك القاعة الصغيرة حيث كانت كل الأماكن مشغولة. سأل نفسه: لماذا اختاروا قاعة صغيرة كهذه لقضية مهمّة أيضًا كهذه؟

بالتأكيد كان يعرف الإجابة، ومع ذلك لم يستطع أن

fb/mashro3pdf

يصوغها في نفسه، بكل بساطة لم يفعل شيئا، مع تلك الحالة من المشاعر الحادّة واللطيفة التي كانت تنتابه في الوقت نفسه.

وجد مكانًا في المقصورة الضيقة المخصّصة للصحفيين المحاطة بدرابزين من الخشب ومدعمة بأعمدة مستديرة. كان يتوقع زحامًا من الصحفيين والمصوّرين والأضواء، لا شيء من هذا كله. تعرّف زميلَين أو ثلاثة حيّاهم بحركة سريعة ثم ر أي بعض الصحفيين لا يعرفهم ربما يهتمّون بأخبار القضاء. ومهمّ أن جرائد كثيرة ستنشر مقالاتها ببلاغات وكالات الأنباء. ر أي أبوَىْ داماشينو يجلسان في الصف الأول، الأمّ ملتحفة في معطف رمادي اللون وفى يدها منديل مكرمش وتجفّف عينيها من حين إلى آخر. الأب يرتدى جاكتًا غريبًا وضخمًا به مربَّعات سوداء وحمراء على الطراز الأمريكي، وعلى منضدة المحامين من اليسار ر أي السيد فرناندو، كان قد وضع روب المحاماة على المنضدة وكان يفحص بعض الأوراق، يرتدى جاكتًا أسود وفى عنقه بابيون أبيض وكانت نظراته عميقة وشفته السفلى الضخمة تتدلى أكثر من المعتاد. يضع سيجارًا ضخمًا مُطفأً بين أصابع يده اليسرى، وكان ليونيل تورس منكمشًا تقريبًا على مقعده ويبدو خائفًا، تجلس بجواره فتاة شقراء كالحة اللون ونحيفة من المفترض أنها زوجته. أما الضابط تيتانيو سيلفا فكان جالسًا بجوار الضابطَين المتهَمَين. كان الضابطان يرتديان الزى الرسمي، تيتانيو سيلفا يرتدى ملابس عادية، كان أنيقًا جدًّا، بدلة من قماش داكن اللون وبه

fb/mashro3pdf

خطوط طولية ورابطة عنق من الحرير وشعره لامع بسبب ملمّع الشعر.

دخلت هيئة المحكمة وبدأت الجلسة. فكّر فرمينو أن يشغّل مسجّل الصوت ولكنه تراجع عن هذا، لم يكن بالصالة أجهزة صوت جيّدة وكان يجلس بعيدًا وبالتأكيد سيكون التسجيل رديئًا. كان من الأفضل أن يكتب ملحوظات، أخرج المفكرة وكتب: "رأس داماشينو المفقود"، ثم لم يكتب شيئًا بعد واكتفى بأن يسمع. لم يكتب شيئًا آخر لأنه كان يعرف من قبل كل ما يُقال: قراءة شهادة العثور على الجثة بواسطة مانولو ألخيتانو، شهادة الصيّاد الذي أخرج الرأس في صِنَارة سمك الشوب، وتقريرَى تشريح الجثة وما قاله الشاهد ليونيل تورس، كان يعرف هذا أيضًا لأن هيئة المحكمة طلبت منه ببساطة أن يؤكد ما قيل في التحقيق، وأكّد تورس. وعندما جاء دور تيتانيو سيلفا أكّد هو الآخر. كان شعره لامعًا شديد السواد، وشواربه الرفيعة ترافق حركات شفتيه الرقيقتين. بالتأكيد الشهادة الأولى التي جاءت في التحقيق كانت نتيجة غموض، لأن الضابط الذي كان مستقلا السيارة كان نائمًا نومًا عميقًا، مسكين، ومن ناحية أخرى كان قد بدأ العمل الساعة السادسة صباحًا وعمره عشرون عامًا فقط، وفى هذا العمر يكون الجسد بحاجة إلى النوم، نعم، لقد أخذوا مونتيرو في الواقع إلى قسم البوليس وكان رجلاً محطَّمًا وبائسًا وبدأ يبكى كالطفل، كان منحرفًا وهو صغير ولكنّ المنحرفين أيضًا يثيرون الشفقة،

fb/mashro3pdf

وهو نزل مع ضابط آخر إلى المطبخ لكي يحضّر له فنجان قهوة. أبدى رئيس المحكمة أن ذهاب شخصين لعمل فنجان قهوة شيء مبالَغ فيه في رأيه. عمومًا، هذا حقيقي، سيكون حقيقيًّا، قالته بخفة شفاه تيتانيو سيلفا بشيء من الهمس السرّى، ولكن هنا ضروريّ أن نتحدث عن التجهيزات التي تمدّها الحكومة إلى أقسام البوليس، وهو يشعر بعدم قدرة على نقد الحكومة، فهو يفهم مصاعب الحكومة: الميزانية الضئيلة عند الوزير المسئول، ولكن ماكينة القهوة تلك تعود إلى تجهيزات تسع سنوات مضت، وإذا كانت المحكمة تريد أن تتحقق فإن مكتب حسابات قسم البوليس لديه الفواتير في الأرشيف، ومن الواضح أن ماكينة قهوة قديمة منذ تسع سنوات لا تعمل بشكل متقَن وتحتاج إلى عمل كثير، لا بد من زيادة أو خفض شدّة النار، وهكذا، وبينما كان الضابط مشغولاً بالماكينة ليأتى بالقهوة إلى مونتيرو المسكين سمعوا صوت عيار ناريّ، هُرعوا إلى فوق، مونتيرو كان يرقد ميتًا بجوار مكتب وبيده المسدس، مسدس الخدمة للمجند فرّو، الذي تركه سهوًا على المكتب. نعم، لأن الضابط ليس إنسانًا آليًّا ويمكن أن ينسى المسدس على المكتب.

استطاع فرمينو أن يحفظ مما جاء بعد هذا فقط بعض العبارات المتفرقة، كان يحاول أن ينتبه بقدر المستطاع، ولكن ذهنه كأنه خالٍ من التحكم يهيم في أشياء خاصّة به ويقوده إلى الوراء، خارج تلك القاعة التي كانت تبدو له غريبة، وجد نفسه

fb/mashro3pdf

فجأة أمام رأس مقطوع وموضوع على طبق. ثم في مخيَّم للغجر في يوم من أيام شهر أغسطس الخانقة، في حديقة النباتات النادرة أمام شجرة غريبة عمرها مئات السنين غرسها ضابط في جيش نابليون. وفى هذه النقطة تمّت مناقشة الصداع النصفى عند تيتانيو سيلفا واستطاع فرمينو أن يلتقط أجزاء كبيرة من هذه المناقشة، عرض شهادة طبية تؤكّد أن الضابط سيلفا كان مصابًا بنوبات صداع نصفى فظيعة سببها فقدان إحدى طبلتَى الأذن بسبب انفجار لغم بجواره في أنجولا، ولكنه لم يطلب قط معاشًا من الحكومة، وأنه بسبب اضطراباته كان عليه أن يعود إلى منزله ليُحقَن بعقّار سوميجرينى تاركًا جثة مونتيرو على الأرض، وبعد هذا بدأ الضابطان يتلعثمان بأنهما يفهمان حقًّا في تلك اللحظة ويدركان أن التهمة يمكن أن تكون إخفاء جثة، ولكن في تلك الليلة لم يفكرا في قانون العقوبات، ومن ناحية أخرى فهما لا يعرفان جيدًا قانون العقوبات، كانا متألّمَين جدًّا وفى غاية الانفعال، وهكذا حملا الجثة وتركاها في حديقة البلدية. وأخذ تيتانيو سيلفا على عاتقه الردّ على الأسئلة الخاصّة بحروق السجائر الموجودة في جثّة مونتيرو، وبينما كان فرمينو يسمع كلماته كيف هى مبطنة بطبقة حريرية وحادّة جدًّا في الوقت نفسه، أدرك أنه بدأ يتصبب عرقًا وكأن نارًا تحرقه، وفى نفس الوقت كانت شفتا تيتانيو سيلفا الرقيقتان تشرحان للمحكمة بلباقة شديدة أنه كان قد أمر بوضع لافتات في قسم البوليس مكتوب عليها "ممنوع التدخين"، التدخين يسبب

fb/mashro3pdf

السرطان كما يقول العلماء وكما تكتب البلاد المتحضرة على علب السجائر طبقًا للقانون.

ضحك شخص من الحاضرين بالصالة بطريقة غبيّة وامتص فرمينو تلك الضحكة العابرة بطريقة غريبة كأنها رسالة غبيّة، أدرك أن بيده رعشة خفيفة وكتب بتلقائية: "ضحكة". ثم بعد مداخلة المدّعى العامّ سأل رئيس المحكمة إذا كان المحامون يريدون أن يقدموا إعلانًا مسبَّقًا. نهض محامي الدفاع، كان رجلاً قصيرًا وله كرش ومتغطرس وأكّد أن شيئًا ما يعارض وقائع القضية، مسألة مبدأ، تمامًا هكذا، مبدأ، كان صوته صارمًا وحاسمًا، حاول فرمينو أن يُعيره انتباهًا ولكن كدفاع عن نزاهته النفسية التي كان يشعر أنها في خطر، بسبب هذه الكلمات استطاع أن يدوّن فقط في مفكرته جملاً غير مترابطة في رأيه: بطولات في حرب إفريقيا، ميداليا برونزية لشجاعته العسكرية، ولاء لقوميته ووطنية عالية، الدفاع عن القيم، الحرب ضد الجريمة، ثقة أكيدة في الحكم. كانت هناك استراحة بعد هذا، كانت بالتأكيد ثواني قليلة حتى لو بدت لفرمينو وقتًا بلا نهاية، نوع من الحيرة يحمله خياله من خلالها إلى منزل أبيض على ساحل كاشاس وإلى وجه والده، إلى بحر أزرق هائج بأمواج بيضاء، إلى بينوكيو من الخشب يستحمّ معه فرمينو الصغير في الشرفة في وعاء من الزنك. قال رئيس المحكمة: كلمة الاتهام.

fb/mashro3pdf

نهض السيد فرناندو، ارتدى رداء المحاماة بإهمال ووقف أسفل منصّة هيئة المحكمة ونظر نحو الحاضرين. كان لونِ بشرته مصفرًّا وجلد وجناته يتدلى على جانبي وجهه مثل أذنَى كلب الصيد، يمسك في يده سيجاره المطفأ، وبهذا السيجار أشار إلى نقطة في السقف كأنه يشير إلى شخص بالتحديد.

قال السيد فرناندو: سأبدأ بسؤال أوجّهه قبل كل شيء إلى نفسي: ماذا يعنى أن نكون ضدّ الموت؟

في هذه اللحظة ضغط فرمينو على زر المسجّل.

كان القطار يسير بالليل، رأى فرمينو من النافذة عنقود ضوء من بعيد، ربما كانت مدينة إسبنهو. أخذ مكانه في عربة الطعام التي كانت في الواقع مطعم خدمة ذاتية في آخره صالون صغير في آخره. يوجد جرسون على الطاولة يبدو عليه الإرهاق وبيده خرقة، اقترب منه الجرسون وقال: آسف؛ لا يمكن أن تجلس هنا دون أن تطلب شيئًا.

قال فرمينو: احمل إليّ ما تريد، ربما قهوة.

قال الجرسون: الماكينة مطفأة.

حسنًا، مياهًا معدنية.

قال الجرسون: آسف، المطعم مغلق.

سأل فرمينو: إذن؟

fb/mashro3pdf

كرّر الجرسون: لا يمكن أن تجلس هنا دون أن تطلب شيئًا، ولكن سيادتك لا تستطيع أن تطلب.

ردّ فرمينو: لا أفهم السبب.

شرح الجرسون بهدوء: هذه خدمة للعاملين بالسكك الحديدية.

فرمينو يسأل برقّة: ولكن ماذا يجب أن نفعل سيادتك؟

أجاب الجرسون: يجب أن أنظّف يا سيدي، علىّ أن أقوم فقط بأعمال الجرسون، هذا حسب العقد، ولكن في السكك الحديدية يفرضون علىّ أيضًا أن أنظف، وللأسف نقابتي لا تدافع عنى.

قال فرمينو: حسنًا، اتركني هنا بينما أنت تنظّف، لن أسبب لك إزعاجًا. قد يؤنس كلانا الآخر.

هزّ الجرسون رأسه بأنه فهم وابتعد. أخذ فرمينو المفكّرة ومسجّل الصوت. فكّر كيف يكتب المقال عن القضية. لم يأخذ ملحوظات، ولكن ذاكرته كانت تكفيه في الصياغة. وفى ما يتعلق بحديث السيد فرناندو فهو لديه في ذلك الجهاز الصغير. ربما كان التسجيل غير نقى ولكن بشيء من المجهود يستطيع أن يكتبه. رأى أضواءً أخرى من النافذة، مدينة جرانخا؟ اللعنة، لا يتذكر بعدُ أن كانت مدينة جرانخا تأتى قبلَ أو بعدَ مدينة أسبنهو. يخيّم الظلام على الزجاج. أخذ فرمينو القلم وبدأ

fb/mashro3pdf

يختزل. فكر أنه أحياناً لا يفهم، ولكن كل شيء في الحياة يمكن أن يكون مفيدًا، على سبيل المثال الدورة القديمة في الاختزال. تمنى أن يكون أكثر سرعة إلى حدّ ما وضغط على زرّ التشغيل.

الصوت يصل من بعيد. التسجيل كان مَعيبًا وكانت العبارات تضيع في صدى الصوت.

"... أكرّر، سؤال أوجّهه إلى نفسي قبل كل شيء: ماذا يعنى أن نكون ضد الموت؟ ---------- كل إنسان لا غنى عنه مطلقاً لكل الآخرين، والجميع لا غنى عنهم مطلقاً لكل فرد ----------
– وكلهم كيانات نافعة له إنسانيًّا، كل إنسان هو أصل للجنس البشرى ----------
-------- أكرر، الأصل البشرى للإنسان هو نقطة الانطلاق ----------
---

---- إن تأكيد دستور لمهنة وأخلاقياتها يتجه أصلاً ضد إنكار الإنسان، إذن فللإنسان أن يكون ضد الموت، ولكن بما أن الإنسان ليس لديه خبرة بموته شخصيًّا، بل خبرة بموت الآخرين فقط يستطيع عن طريقها فقط أن يتخيل ويخاف من موته شخصيًّا ----------
---

fb/mashro3pdf

---------- والقاعدة الأخيرة والشرط الذى لا يمكن أن نتخطاه في أي فلسفة أخلاق إنسانية يعنى ل أي ---- هي للجميع ----------
----------.

اقترب الجرسون وفرمينو أطفأ المسجّل.

سأل الجرسون: هل تسمع الراديو؟

أجاب فرمينو: لا، إنه تسجيل عملته هذا الصباح. إنها قضية.

قال الجرسون: إذا كانت قضية، فهى بالطبع مشوّقة، لقد شاهدت قضية في التليفزيون تبدو كأنها فيلم.

ثم أضاف: لكي تبقى هنا يجب أن تطلب شيئًا.

سأل فرمينو: وإذا طلبت شيئًا؟ ما قولك إذا طلبت شيئًا؟

ردّ الجرسون: لا يمكن، السكك الحديدية تمنع هذا.

ردّ فرمينو: هل تعلم ما السكك الحديدية؟

بدأ الرجل وهو يفكّر. أسند المكنسة إلى حائط عربة القطار.

قال أبوه: ، أنا أعرف السيد بدرو فقط، ذلك الذي يوجد في شُبّاك الموظفين.

fb/mashro3pdf

– في رأيك السيد بدرو هذا هو السكك الحديدية؟

ردّ الجرسون: فلنتصور أنه على وشك الخروج إلى المعاش.

قال فرمينو: إذن لماذا لا أطلب شيئًا؟ قد نأخذ شيئًا معًا على هذه المنضدة، ونأخذ شيئًا ساخنًا، ما رأيك؟

حكّ الجرسون رأسه وأجاب: إن ماكينة القهوة مطفأة، ولكن يمكن إشعال الموقد الكهربي.

قال فرمينو: فكرة جيدة، وماذا نستطيع أن نضع على الموقد الكهربى؟

اقترح الجرسون: ما رأيك في بيضتين مخفوقتين؟

أوحى فرمينو: بلحم خنزير.

ردّ الجرسون وهو يبتعد: لحم خنزير ماركة تراس–أوس–مونتيس.

ضغط فرمينو على زر التشغيل: "هذا تجانس فريد حقًّا. هكذا، منذ عام ١٩١٤، يهوديّ غير معروف من براغ يكتب بالألمانية ----------
---

---------- تجانس فريد جدًّا يولّد قانونًا

fb/mashro3pdf

بربريًا ----------

--- تجانس مستعمرة جنائية، أو هو توقّع رهيب للحدث المرعب الذي ستشهده أوروبا؟ ----------
---------- وحشيّ،
وحشيّ، مصّاص دماء يختبئ خلف القاعدة الأساسية -----

----- ذلك الكاتب البراغى لم يكن يستطيع أن يعرف ماذا سيقترف الشعب الذي كان يتحدث اللغة التي كان يكتب بها --
---

---------- لأنه من الواضح أن جريمة القتل لا تكفى ----------

- التعذيب ----------

------ الحراس القساة ----------

fb/mashro3pdf

---------- قبل القتل يجب أن يعذّبوا ويقسوا بشراسة ويؤلموا جسد الإنسان ----------
---

ستقولون ونقول أن لا أحد منا مسئول عن هذه الوحشية التاريخية، ولكن ما حدود المسؤولية الفردية؟ لأن العذاب، أحد الأسس النظرية للوحشية ----------
---
----------".

ما تلا هذا كان خشخشة غير مفهومة، ضوضاء تأتى من العمق، وهمهمة الحاضرين. ضغط فرمينو على زر الوقف. وصل الجرسون ومعه إناء ينبعث منه بخار البيض المخفوق، كان قد قطّع شرائح من الخبز منثورًا عليها زبد ونسّق الأطباق على المنضدة.

سأل الجرسون: هل أطفئت؟

ردّ فرمينو: للأسف، يُفهم قليلا جدًّا، وعندما كان يستدير ناحية هيئة المحكمة كان صوته يُفقد ويُسمع فقط صوت الكهرباء.

سأل الجرسون: ولكن من الشخص الذي يتحدث؟

fb/mashro3pdf

ردّ فرمينو: محامٍ من أوبرتو، ولكن تُفهم فقط بعض العبارات المتفرقة.

سأل الجرسون: أسمعني.

ضغط فرمينو على زر التشغيل: إذن مسموح لى باستشهاد أدبى، لأن الأدب يساعد أيضًا في فهم القانون ----
---

---------- الإنسان البكر، مثلما أطلق عليه علماء ما فوق الطبيعة الفرنسيون، ماكينات رفض الحياة، لأنهم ينقلونها على فراش الموت ----------
---

---------- رجال الشرطة لديهم اليوم، وأقول اليوم في عام الفضل هذا الذي منحت فيه الحياة، هم الماكينات البكر --
---
---------- إبر هذا التجانس أو ربما ماكينات هذه المستعمرة الجنائية أو السجائر المطفأة على الجسد ----------
---

عندما نقرأ وثيقة رقباء المجلس الأوروبي لحقوق الإنسان في

fb/mashro3pdf

ستراسبورج المسئولين عن قبول شروط السجن لِمَا تُسَمِّيه بلادنا المتحضرة وثيقة قطيعة عن أماكن الاحتجاز الأوروبي

---.

فقد صوت المحامى في حشرجة غير مفهومة.

قال فرمينو: كنت بعيدًا جدًّا، ثم إنه كان يخفض صوته أحيانًا، يهمهم، كأنه يتحدث مع نفسه.

قال الجرسون: حاول مرة أخرى.

ضغط فرمينو على زر التشغيل: ----------

---------- فسّر كاتب معاصر كبير تلك القضية التنبُّئية لعام ١٩١٤ ووصل إلى الاستنتاجات الإنسانية التي بدأت بها حديثي ----------
---
---------- إن كان حقيقيًّا كما يؤكد أن تلك القضية استطاعت أن تجسّد وتبرز أوهام الحسرة --------
---

---------- ولكن ب أي حنين يتعلق؟ بالجثة المفقودة؟ بالحنين إلى النقاء؟ عندما كان الإنسان خاليًا من

fb/mashro3pdf

الشر؟ لسنا قادرين على أن نؤكّد هذا، ولكننا نستطيع مع كامو أن نؤكد أن الثورات الكبيرة هي دائمًا بعيدة عن الواقع، وأنه كما يدعم مستعينًا بنيتشه المشكلات الكبيرة توجَد في الشارع – ---------- هذا ---------- الرجل الموجود أمامنا والذي ليس لدى أدنى خوف أن أصفه بالوضيع للتعذيب الذي يمارسه، لأنه بالتأكيد لا أحد يستطيع أن يتصور أن شخصًا ما يطفئ أعقاب السجائر في جثة، إذن -- ---------- ---------- ---------- رجال البوليس لدينا الذين ليس عليهم أية مراقبة قضائية وحماية قانونية حيث يعمل أفراد مثل الضابط تيتانيو سيلفا ---------- ".

سُمعت ضوضاء غير مفهومة وأطفأ فرمينو مسجل الصوت.

قال الجرسون: حان الوقت لتأكل البيض.

ردّ فرمينو: إنه لم يبرد بعد.

سأل الجرسون: هل تريد بعض الكاتشاب؟ الآن الجميع

fb/mashro3pdf

يريدون الكاتشاب.

قال فرمينو: لا أريده.

الجرسون يبدى ملحوظة: لقد أعجبتني حقًّا تلك الجملة بأن المشكلات توجد في الشارع. من الذي قالها لسيادتك؟

أجاب فرمينو: كامو. هو كاتب فرنسي، ولكن يستشهد بها في الواقع فيلسوف ألماني.

سأل الجرسون مرة ثانية: والمحامى؟ ماذا يُدعَى هذا المحامى؟

ردّ فرمينو: إن له اسمًا معقدًا، ولكن الجميع يعرفونه في أوبرتو بالمحامى لوتون.

طلب الجرسون: أكمل، يروق لى أن أسمعك أكثر.

ضغط فرمينو زر التشغيل: "---------- ---------- وفى ما يتعلق بانتحار داماشينو مونتيرو المزعوم ---------- ---------- ---------- جون أميري ---------- ---------- إن صفحاته الشرسة في مناقشة حول الانتحار تشير إلى أن الاشمئزاز من الحياة شرط

fb/mashro3pdf

أساسي للموت اللاإرادى، ولكن ليس كتابة فقط على قدر ما أن حياته أساسية لفهم ----------

---

جون أميري، يهودي من وسط أوروبا وُلد في فيينا، هرب إلى بلجيكا في نهاية الثلاثينيات ونفاه الألمان في عام ١٩٤٠، هرب من معسكر التعذيب في جوروس وانضمّ إلى المقاومة البلجيكية، وقبض عليه النازيون من جديد في عام ١٩٤٣ وعذّبه البوليس السري النازي الألماني، ثم نفى إلى مدينة أوشفيتس، وهو باقٍ على قيد الحياة ----------

---

---------- ولكن ماذا تعنى النجاة؟ ---

---------- ولكنى أتساءل --

---------- عندما كرّس نفسه بذوق عالٍ للأدب كتب بالألمانية والفرنسية، أتذكّر مثلاً دراسات على فلوبير وروايتين ----------

---

--- ولكن هل الكتابة يمكن أن تنقذ من مذلّة لا تُمحَى؟ ---

---

fb/mashro3pdf

انتحر أخيرًا في سالزبورج عام ١٩٧٨ ----------

---------- أؤكد إذن أنه إذا كان داماشينو مونتيرو قد رفع يده على نفسه لأن شكوكي الشديدة لا يمكن أن تستند على شهادة، حتى لو كنا مجبَرين بشدة على تصديق هذا التفسير --
---

---------- فعله اليائس ربما كان فعلاً مجبَرا عليه، نتيجة للتعذيب الذي تَعرّض له كما يوضّح التشريح الدقيق ----------
---

---------- أؤكّد أن المسئول هو الضابط تيتانيو سيلفا ----------
---

وسائل التحقيق المطبَّقة لديه في قسم البوليس ----------

-- هل اتجاهاتي بوليسية تنتسب إلى دون كيشوت؟ عمومًا، إذا سمحت لنفسي باستشهاد أخير، سأقول إنه توجد طريقتان في التفكير لكل المشكلات الأساسية، أي تلك التي تعرّض لخطر الموت أو التي تزيد الرغبة في الحياة، تفكير باليسى

fb/mashro3pdf

وتفكير دون كيشوت ----------

----------داماشينو مونتيرو مات بالتأكيد بسبب فنجان قهوة، يريدون أن يجعلونا نصدّق ----------
----
---------- ولكن هذه الغباوة المهينة المناسبة لفكر باليسى والتي سمعناها في الشهادات الساخرة التي قالها المتهَمون تثير العار ----------
----

---------- العار ----------

-- العار. سأحاول أن اشرح ماذا أقصد بكلمة العار -----
----------".

ضغط فرمينو على زر الإيقاف.

قال: الآن توقف التسجيل فجأة بالفعل، ولكن أؤكد لك أن لحظة المرافعة هذه كانت شيئًا تقشعر له الأبدان، كان يجب أن اختزلها في نفس الوقت، ولكنى لم أستطع، ثم إنى كنت أثق في هذا الشيء التافه.

علق الجرسون: خسارة! وبعد؟

fb/mashro3pdf

قال فرمينو: ثم وصلنا إلى العبارات الأخيرة، لقد ذكر حالة سالسيدو.

سأل الجرسون: من كان؟

ردّ فرمينو: ولا أنا أعرفه، إنها حادثة وقعت في الولايات المتحدة الأمريكية في الثلاثينيات، أعتقد أن سالسيدو كان فوضويًّا وأُلقيَ به من النافذة في قسم البوليس واعتبرها البوليس حادثة انتحار، وعرف العالم كله هذه الحادثة عن طريق محامٍ أظنّ أن اسمه جاليانى. كانت هذه هي نهاية المرافعة، ولكن كما ترى لم يبق شيء في الشريط.

نهض الجرسون وقال: سنصل إلى لشبونة بعد قليل، يجب أن أحضر أشيائي.

قال فرمينو: أحضر إليّ الحساب، سأدفع أنا.

اعترض الجرسون: لا يمكن، يجب أن أحضر إليك الفاتورة، والماكينة تسجّل الساعة، والساعة تُظهِر أن سيادتك أكلت في وقت ليس به تقديم طعام.

أجاب فرمينو: لا أفهم هذا المنطق.

الجرسون ينهى الحوار: أربع بيضات مخفوقة لن تؤدّى إلى تخريب السكك الحديدية، ثم إني أشكرك على مؤانستي؛ بدت لى الرحلة قصيرة. يؤسفنى فقط التسجيل، إلى اللقاء.

fb/mashro3pdf

أعاد فرمينو مسجّل الصوت في الحقيبة وتصفح المفكرة التي كان قد تركها مفتوحة على المنضدة. كانت بيضاء. الحكم كان الشيء الوحيد الذي استطاع أن يكتبه بسرعة، قرأه مرة ثانية: "هيئة المحكمة بحكم صلاحيتها القانونية، وبعد دراسة القضية وسماع المتهَمين والشهود ومحاميي الطرفين، تحكم على الضابط كوستا والضابط فرّو بالسجن عامين بسبب جرائم إخفاء جثة والإهمال في العمل، وزاد من خطورتها إنها تمّت من موظفين بالحكومة في أثناء العمل. وتماشيًا مع مزايا القانون الوضعي تحكم على الضابط تيتانيو سيلفا بمسؤوليته عن الإهمال لأنه ترك قسم البوليس في أثناء الخدمة ووقفه عن العمل لمدة ستة أشهر، وتبرئته من تهمة القتل".

بدأت تسطع من النافذة أولى أضواء الضاحية. أخذ فرمينو حقيبته وخرج إلى الممرّ الذي كان خاليًا. نظر إلى الساعة، كان القطار في موعده بالضبط.

fb/mashro3pdf

(٢١)

خرج فرمينو من كلية الآداب وتوقّف أعلى الدرَج وهو يتفقد الجراج بحثًا عن كاترينا. شهر أبريل يتألق بكل بريقه. نظر فرمينو إلى أشجار الميدان الكبير بالمدينة الجامعية التي يتفتح فوقها اخضرار الأوراق المبكّر.

خلع سترته، كان الحر صيفيًّا تقريبًا. تَعرّف سيارتها ونزل الدرجات وهو يلوّح بورقة في يده.

صاح بلهجة انتصار: تستطيعين أن تحضري الحقائب، سأسافر.

ألقت كاترينا ذراعيها حول عنقه وقبّلته.

– متى ستبدأ؟

– فورًا، نظريًّا يمكن أن أسافر أيضًا غدًا.

– هل هي لمدة عام؟

قال فرمينو: فاز بالمنحة لمدة عام المتفوق المتفوق، ومنحوني تلك المنحة الدراسية لمدة ستة أشهر، ولكن أفضل من لا شيء، ألا تريدين هذا؟

fb/mashro3pdf

فتح النافذة وتَغنّى كأنه يحلم.

– قوس النصر، ميادين الإليزيه، متحف أورسى، المكتبة الأهلية، الحىّ اللاتيني، ستة أشهر في مدينة النور، آه! هل نحتفل؟

أجابت كاترينا: نحتفل، ولكن هل أنت متأكد أن النقود سوف تكفى لفردين؟

ردّ فرمينو: المرتبات الشهرية عالية نوعًا ما، حقيقي أن باريس مدينة غالية، ولكن لى الحقّ في الوجبات الجيدة في مطعم الجامعة، لن تكون حياة فاخرة ولكننا سنجيد التصرف.

دخلت كاترينا في مرور الميدان الكبير.

سألت: أين نذهب لنحتفل؟

فرمينو يقترح: يا ليت في "تونى دوس بيفيز"، ولكن دوري حول الساحة المستديرة، أوصليني إلى الجريدة؛ أودّ أن أضع كل شيء في نصابه مع المدير فورًا، فنحن ما زلنا في منتصف النهار.

كانت عاملة التليفون وهى على مقعدها المتحرك تأكل في وعاء صغير من الورق القصديري وتقرأ في الوقت نفسه جريدة أسبوعية كانت مولَعة بها.

fb/mashro3pdf

لامها فرمينو بضحك: نقرأ هنا آخر الأخبار؟

ذلك الصباح كانت هيئة التحرير مكتملة. فرمينو تَقدّم كاترينا بين المكاتب، مرّ أمام رئيس التحرير وقال له بود: صباح الخير يا سيد هابرت.

ودخل في غرفة المدير الصغيرة بعد أن قرع مرتين على الزجاج.

قال فرمينو: خطيبتي.

همس المدير: تشرّفنا.

جلسوا على تلك المقاعد الوعرة المصنوعة من المعدن الأبيض والتي نثرها مهندس التجديدات في كل مكان. وكما هو معتاد كان الجوّ خانقاً في مكتب المدير.

قال فرمينو دون أن يعرف كيف يبدأ: عندي موضوع للمناقشة مع سيادتك سيدي المدير.

ثم أكمل بسرعة: أودّ أن أطلب منك ستة أشهر إجازة.

أشعل المدير سيجارة، ونظر إليه دون إبداء أي تعبير وقال: أوضح أفضل.

حاول فرمينو أن يوضّح أفضل على قدر ما يستطيع، المنحة الدراسية التي فاز بها، إمكانية عمل بحث في باريس

fb/mashro3pdf

مع أستاذ من جامعة السوربون، بالتأكيد كان يستغنى عن المرتب، وهذا كان شيئًا ضمنيًّا، ولكن إذا استقال سيظل دون التأمين الاجتماعىّ، فهو لا يزعم أن تدفع له الجريدة الإسهامات الشهرية التي سيدفعها هو بنفسه، فقط لا يريد أن يجد نفسه عاطلاً لأن العاطلين في نفس البلد الذي يعيشون فيه لهم نظام تأمينات كأنهم كلاب ضالّة، والمدير يعلم هذا جيدًا، ثم إنه سيعود بعد ستة أشهر ويستأنف عمله الأصلي، وهذا وعد أكيد.

همهم المدير: ستة أشهر كثير جدًّا، من يدرى كم حادثة ستقع في ستة أشهر!

قال فرمينو: يعني... سيبدأ هذه الأيام الفصل الجميل، بعد قليل ستأتي الإجازات وسيذهب الناس إلى البحر، يبدو أن الناس في الصيف ينتحرون قليلاً، قرأت هذا في إحصائية. قد يستطيع السيد سيلفا أن يقوم بعمل المراسل، كان يتمناه كثيرًا.

بدا المدير وهو يفكر في ردّ. طرأت لفرمينو فكرة مفاجئة.

قال: اسمع، قد أستطيع أن أرسل مقالات من باريس، فإن باريس مدينة تحدث بها جرائم عاطفية، ليست أي جريدة يمكن أن يكون لها مراسل في باريس، وهذا سيكون لديك مجاناً، فكّر كم هو شيء راقٍ: "مِن مراسلنا في باريس".

fb/mashro3pdf

ردّ المدير: يمكن أن يكون حلاًّ، ولكن يجب أن أفكر، سنتحدث فيه غدًا بهدوء. اتركني أفكر.

نهض فرمينو وأشار ليستأذن ونهضت كاترينا معه.

قال المدير: آه، لحظة، توجد برقية لك، وصلت أمس.

مد إليه بالبرقية وفتحها فرمينو، كان مكتوبًا بها: "أريد أن أتحدث إليك على وجه السرعة. أنتظرك غدًا في مكتبي. المكالمة التليفونية لن تجدي. كل الودّ. فرناندو دى مللو سيكويرا".

قرأ فرمينو البرقية ونظر إلى كاترينا بارتباك ونظرت إليه هي الأخرى بتساؤل. قرأ فرمينو البرقية بصوت عالٍ وسأل: ماذا يريد منى؟!

لا أحد من الاثنين كان لديه شيء يقوله.

سأل فرمينو وهو متجه إلى كاترينا: ماذا أفعل؟

ردت هي: أعتقد أنه يجب أن تذهب إليه.

ألحّ فرمينو: أتعتقدين هذا؟

ضحكتك كاترينا: ولماذا لا، أوبرتو ليست في آخر العالَم.

سأل فرمينو: واحتفالنا في "تونى دوس بيفيز"؟

fb/mashro3pdf

ردّت كاترينا: نؤجّله إلى الغد، نأكل شيئًا بسيطًا في محلّ حلوى فرس أي ثم أوصلك إلى محطة القطار، فأنا لم أذهب إلى محل حلوى فرس أي منذ زمن.

كم كان شيئًا مختلفا أن يرى مدينة ذات أضواء جميلة وشمس ساطعة. تذكر فرمينو آخر مرة رأي فيها تلك المدينة، ذلك اليوم المليء بالضباب في شهر ديسمبر، عندما بدت له كئيبة جدًّا. أوبرتو الآن -على العكس- لها شكل مَرِح وحيويّ وحيّ وأواني الزهور على نوافذ شارع روا داس فلورس كلها مزهرة.

دق فرمينو على الجرس وفتح الباب فجأة. كان السيد فرناندو غائرًا على الأريكة الموجودة تحت المكتبة. كان يرتدى الروب كأنه مستيقظ لتوّه ويلفّ إيشاربًا من الحرير حول عنقه.

قال بلامبالاة: أشكرك لأنك أتيت. استرِح.

قعد فرمينو وقال: كنت تريد أن تراني بشكل عاجل، ماذا هناك؟

أجاب دون فرناندو: نتحدث في هذا فيما بعد، ولكن احكِ لى أولا عن نفسك، كيف حال خطيبتك؟ هل تم تعيينها في المكتبة؟

ردّ فرمينو: ليس بعد.

fb/mashro3pdf

– وبحثك عن الرواية البرتغالية في فترة ما بعد الحرب العالمية؟

قال فرمينو: لقد كتبته، ولكنه ليس بحثًا طويلاً، هو بحث صغير في نحو عشرين صفحة.

سأل السيد فرناندو: دائمًا لوكاش؟

أوضح فرمينو: لقد عدلت الهدف بعض الشيء، لقد ركّزت على رواية واحدة معتمدًا أيضًا على مناهج بحث أخرى.

قال المحامى: احكِ لي.

قال فرمينو: نشرة الأخبار الجوية في الجريدة مثل استعارة عن التحريم، في رواية برتغالية في الستينيات، وهذا هو عنوان البحث.

المحامى يبدى استحسانه: عنوان جميل، عنوان جميل حقًّا. والمنهج البحثي الذي ارتكزت عليه؟

شرح فرمينو: أساسًا لوتمان، في ما يتعلق بتفسير الرسائل الغيبية، ولكنى احتفظت بلوكاش في ما يتعلق بالأفكار السياسية.

قال المحامى: خليط مشوّق، أنا متشوق إلى قراءته يا ليتك ترسله إليّ. ثم؟

fb/mashro3pdf

فرمينو وافق بشيء من الرضا: اشتركت بهذه الدراسة الصغيرة في مسابقة من أجل منحة دراسية في باريس وفزت بها. عندي مشروع بحث جميل.

قال المحامى: شيء مشوّق، وبماذا يتعلق مشروعك؟

قال فرمينو: الرقابة على الأدب.

صاح المحامى: ولكن...! تهانئى، ومتى تعتزم السفر؟

ردّ فرمينو: في أسرع ما يمكن، تبدأ المنحة الدراسية في اللحظة التي يوافق فيها المرشّح، وقد وقّعت على الموافقة هذا الصباح.

المحامى يكرر: أفهم، لعلى جعلتك تأتى إلى هنا بلا جدوى، حقًّا لم أكُن أتخيل هذه الظروف السعيدة بالنسبة إليك، والمُلزِمة في الوقت نفسه.

سأل فرمينو: أنا أحتاج إليك.

نهض السيد فرناندو ووصل إلى المكتب. تناول سيجارًا وأخذ يشمّه لفترة طويلة دون أن يفكّر أن يشعله، ثم هوى من جديد على الأريكة وألقى برأسه إلى الخلف وهو ينظر إلى السقف.

قال: سأطلب إعادة النظر في القضية.

fb/mashro3pdf

نظر فرمينو إليه بدهشة، كرّر: ولكن الوقت متأخر، سيادتك لم تقدّم استئنافاً في الوقت المناسب.

وافق المحامى: حقيقي، بدا لي بلا فائدة في ذلك الوقت.

فرمينو يحدد: وتمّ الحكم في القضية.

قال المحامى: بالفعل تمّ الحكم فيها، وأنا سأفتحها من جديد.

سأل فرمينو: بأي حجة؟

صمت السيد فرناندو، استقام، ودون أن ينهض فتح صواناً صغيرًا بجوار الأريكة، تناول زجاجة وقدحين.

قال: ليس من خمر بورتو غير العادىّ، ولكن له قيمته.

سكب النبيذ وقرّر أخيرًا أن يشعل السيجار.

قال ببطء: لدى شاهد عيان، الأشياء التي رآها تسمح لى أن أفتح القضية من جديد.

فرمينو يكرر: شاهد عيان؟ ماذا تقصد بهذا؟

ردّ السيد فرناندو: اسمه واندا، وهو شخص أعرفه.

سأل فرمينو: واندا مَن؟

أجاب: واندا هو إنسان بسيط، أحد تلك المخلوقات

fb/mashro3pdf

البسيطة التي تدور على القشرة الأرضية والتي لا مكان لها في مملكة السماء. اليوتيريو سانتوس، المعروف بواندا، هو جنس ثالث.

قال فرمينو لا أفهم.

أكمل السيد فرناندو كأنه يقرأ قائمة معلومات: اليوتيرو سانتوس، اثنان وثلاثون عامًا، وُلد في قرية في جبال ماراو، من أسرة رعاة فقراء جدًّا، اغتصبه عمه وهو عمره أحد عشر عامًا، عاش في الملجأ حتى عمر سبعة عشر عامًا، زاول أعمالاً مؤقتة منها عامل تفريغ فاكهة عند مصبّ الدورو، وعملاً آخر مؤقتًا وهو مساعد حانوتي في مقابر البلدية، قضى عامًا مريضا في مستشفى الأمراض العقلية في هذه المدينة بسبب انهيار عصبي، وهو الشيء الذي جعله يعيش مع مرضى التخلف العقلي والانفصام في أماكن الأمراض العقلية، تلك الجميلة التي تُعتبر فخر بلدنا، وواندا الآن مسجَّل دعارة في شوارع أوبرتو، تحدث له أحيانًا نوبات انهيار عصبي خفيفة ولكنه الآن يستطيع أن يذهب إلى الطبيب.

أوضح فرمينو: سيادتك تعرفه جيدًا.

قال السيد فرناندو: كنت محاميه ضدّ زبون عابر سرقه في أثناء لقاء في السيارة، شخص عادى كان معه شيء من النقود، وواندا خرج منها بنقود قليلة.

fb/mashro3pdf

سأل فرمينو: والشهادة؟ حدّثني عن هذه الشهادة.

شرح السيد فرناندو: باختصار، كان واندا على الطريق الذي يذهب فيه، يبدو أن العمل في تلك الليلة كان قليلاً، وانتقل هكذا إلى الشارع الجانبي، وهى ليست منطقته، وهنا وجد مستغلّ العاهرات الذى ينظّم ذلك الشارع والذي اعتدى عليها. واندا دافعت عن نفسها وتشاجرا وكانت تمرّ فرقة من الحرس الوطني، هرب الرجل وبقيت واندا على الأرض، حملوها إلى قسم البوليس في غرفة الأمن، أو تلك التي يسمّونها غرفة الأمن، وهى غرفة صغيرة رديئة مفتوحة على المكاتب، ولكن حدث أن ضباط الدورية لديهم إحساس بالمسؤولية، قيّدوها في سجلّ المقبوض عليهم. كُتب في السجل: اليوتيريو سانتوس، الدخول الساعة الحادية عشرة. وهذا السجلّ لا يمكن العبث به.

صمت المحامى، أخرج بعض نفثات الدخان في الهواء وحملق من جديد إلى السقف.

سأل فرمينو: ثم؟

ثم ذهب الفريق الذي قبض عليها لأنهم أنهوا عملهم وبقيت واندا في تلك الغرفة الصغيرة التي تتواصل بالمكاتب، استلقت على الفراش ونامت، وفى نحو الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل أيقظها صراخ، واربت الباب ونظرت من ثقب الباب. كان داماشينو مونتيرو.

fb/mashro3pdf

توقف المحامى وأطفأ السيجار في المنفضة. كانت عيناه الغائرتان في وجهه السمين تحملقان إلى نقطة بعيدة: كانوا قد قيّدوه في مقعد نصفه العلوي عارٍ والضابط تيتانيو سيلفا يطفئ السيجار على بطنه، وبما أنه ممنوع التدخين في ذلك القسم كان داماشينو مونتيرو منفضة سجائر هائلة لكي يطفئوا بها أعقاب السجائر. تيتانيو كان يريد أن يعرف من سرق الهيروين المرة السابقة، لأنها كانت المرة الثانية التي يُسرَق فيها الهيروين، وداماشينو يقسم بأنه لا يعرف وأنها كانت أول سرقة له كانت سرقة "ستونس أوف بورتوجال" وفى لحظة معينة صرخ داماشينو بأنه سوف يدينه وأن الجميع سيعرف أن الضابط تيتانيو سيلفا ينظّم ترويج الهيروين في أوبرتو. تيتانيو بدأ يتمتم ويقفز كأن به مسًّا شيطانيًّا. لكن هذه التفاصيل لا فائدة منها. محتمَل أن تعرفها بعد هذا. وأخرج المسدس وأطلق عيارًا على وجنته من قريب.

سكب المحامى لنفسه مرة ثانية كوبًا من نبيذ بورتو.

سأل: هل ترى هذا مشوّقًا؟

ردّ فرمينو: مشوّق جدًّا. وكيف استمرّ؟

طلب تيتانيو من لضابط كوستا أن يذهب إلى المطبخ ويُحضِر السكّين الكهربي. صعد الضابط كوستا ومعه السكين الكهربي وقال له تيتانيو: اقطع رأسه يا كوستا، عنده طلق

fb/mashro3pdf

نارى في مخّه، اذهب وألقِهِ في النهر، وسأتصرف أنا وفرّو في جثته.

نظر إليه المحامى بعيونه شديدة الحركة وسأل: أيكفيك هذا؟

ردّ فرمينو: يكفينى، ولكن أنا؟

شرح السيد فرناندو: انظر، كل هذه الأشياء كنت أعرفها من قبل، ولكنى لا أستطيع أن أكتبها في جريدة. وبما أنى اصطحبت واندا هذا الصباح لتقدم بلاغها إلى السلطات المعنيّة يروق لى أن واندا تحكى ذلك الذي تعرفه لجريدة، فلنقُل إنه نوع من الإجراءات الوقائية، مع كل حوادث الطرق التي تقع في هذا البلد.

قال فرمينو: أفهم، وأين أستطيع أن أجد واندا هذه؟

ردّ السيد فرناندو: لقد أخفيتها في مزرعة أخي هناك في أمان.

سأل فرمينو: ومتى أستطيع أن أتحدث إليها؟

أوضح المحامى: فورًا، ولكن من الأفضل أن تذهب بمفردك، اتصل بمانويل إذا كنت تريد، سيصطحبك بسيارتي إلى هناك.

قال فرمينو: اتفقنا.

fb/mashro3pdf

اتصل المحامى بالسيد مانويل. قال وهو يضع السماعة: الوقت لكي يخرج السيارة من الجراج ليس أكثر من عشر دقائق.

قال فرمينو: سأخرج لأنتظره في الشارع، الهواء اليوم جميل بشكل خاصّ، هل شممت رائحة الطبيعة أيها المحامى؟

سأل السيد فرناندو: ومنحتك الدراسية؟

قال فرمينو: هناك وقت، فمدّتها ستة أشهر، إذا فقدت بعض الأيام فهي سارية أيضًا، سأتصل بخطيبتي بعد هذا.

فتح الباب وهمّ بالخروج ولكنه توقف عند المدخل.

قال: أيها المحامى، لن يصدّق أحد هذه الشهادة.

سأل المحامى: أتظن؟

قال فرمينو: رجل متحوّل، مستشفى أمراض عقلية، ومسجِّل دعارة. فلنتصور.

وهمّ ليغلق الباب خلفه. وقفه السيد فرناندو بإشارة من يده. نهض بصعوبة وتقدّم نحو منتصف الغرفة. أشار بسبابته نحو السقف، كأنه يتوجّه إلى الهواء، ثم وجّهه نحو فرمينو، ثم وجّهه إلى صدره.

قال: إنه إنسان، تذكّر هذا أيها الشابّ، هو إنسان قبل كل

fb/mashro3pdf

شيء.

ثم أكمل: حاول أن تكون رقيقًا معها وفطنًا. إن واندا مخلوقة ضعيفة مثل الزجاج، ل أي كلمة غير مضبوطة تأتيها نوبات بكاء.

هلسنكى ١٩٩٦/٧٠/٣٠

ملحوظة:

الشخصيات والأماكن والمواقف التي تمّ وصفها هي من واقع الخيال الروائي. يوجد من الواقع حادثة فعلية هي التي حرّكت الخيال الروائي: ليلة ١٩٩٦/٥/٧ قتل كارلوس روزا، مواطن برتغالي، عمره ٢٥ عامًا، في قسم بوليس الحرس الوطني الجمهوري في مدينة ساكائيم فيم، في ضواحي لشبونة، وتمّ العثور على جثته في حديقة عامّة، مقطوع الرأس وبه آثار التعذيب.

وفى ما يتعلق ببعض تقنيات النظام القضائي في هذه الرواية كانت حواراتي الحميمة مع القاضي أنطونيو كاسيزى رئيس المحكمة الجنائية الدولية في لاهاي الثمينة جدًّا. ليس هذا فقط بل هناك الانعكاسات التي أثارها لدىّ كتابه "إنسانى غير إنسانى": أقسام البوليس والسجون في أوروبا اليوم (لاترسا).

fb/mashro3pdf

هذه الرواية مدينة لمن أسمّيه هنا مانولو ألخيتانو: إذا أردنا شخصية من الخيال، ولكن من الأفضل أن نقول كيانات شاملة متجمعة في كيان فرديّ في قصة هو غريب فيها من ناحية ما يسمى بـــ"الواقع"، ولكن من ناحية أخرى ليس غريبًا أنّ هناك بعض القصص التي لا تُنسَى والتي سمعناها من غجر قدامى بنفسهم يومًا ما بعد الظهر في مدينة جاناس، في أثناء مباركة حيواناتهم، عندما كان الشعب الرحال يمتلك الخيول.

أشكر داتيلو زولو على كل التوجيهات المتعلقة بفلسفة القانون التي أمدني بها بكل ذوق وحسن خلق، وباولا سبينيزى وماسيمو ماريانتى للاهتمام والصبر اللذين حوّلا بهما النص الأصلى المكتوب خطيًّا إلى طباعة على الماكينة.

يبقى أن أقول إن داماشينو مونتيرو هو اسم شارع في حي شعبي في لشبونة حيث سكنت ذات مرة، وإن أول عبارات مرافعة المحامى لوتون هي عبارات الفيلسوف ماريو روسى، وباقي حديثه يعود فقط إلى ثقافة واقتناع الشخصية. وشكرا.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

المترجمة

ناهد محمد عبد الله

- مدرس بقسم اللغة الايطالية بكلية الألسن جامعة عين شمس.
- ليسانس اللغة الايطالية وآدابها من كلية الألسن جامعة عين شمس بتقدير جيد جدا مع مرتبة الشرف.
- ماجستير الأدب الايطالي من كلية الألسن جامعة عين شمس عام 1995 بتقدير امتياز
- دكتوراه في الأدب الايطالي من كلية الألسن جامعة عين شمس عام 2001 بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى.

حصلت على دبلومه التدريس من مدرسة دانتي اليجيري في رجو كالابريا الايطالية عام 1991

هذا بخلاف المنح الدراسية والأسفار المتعددة في بيروجا وروما.

من أعمالها :

-1 ترجمت رواية طائر الليل الهندي(انطونيو تابوكي).

-2 قصة قرص الشمس الأحمر(ماريو سولداتي).

-3رواية رأس داماشينو مونتيرو المفقود (انطونيو تابوكي).

fb/mashro3pdf